



رحلة الجثمان ورحلة الذاكرة – قراءة سردية
أنثروبولوجية_ في رواية الموت عمل شاق
لخالد خليفة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة ماستر

إشراف:

إعداد الطالبتين:

- أدة/ هواشيرة بختة

- أحلام باشوش

- الزهرة بوخالفة

لجنة المناقشة		
د. بختة هواشيرة	جامعة البويرة	مشرفا
د. رابح ملوك	جامعة البويرة	رئيسا
د. نادية أوديات	جامعة البويرة	مناقشا

السنة الجامعية 2025/2026

شكر وعرفان

كامل الشكر والتقدير للأستاذة المشرفة الدكتورة "

هواشيرية بختة " صاحبة الفضل بعد الله عزوجل على

ما قدمته لنا من نصائح وتوجيهات قيمة خلال مرحلة

إنجاز هذا العمل فلها منا كل التقدير والاحترام.

كما نتقدم بالشكر لكل من أعارنا كتابا او أعاننا في

رحلتنا البحثية هذه.

إهداء

"وكان فضل الله عليك عظيما"

إلى من كلل العرق جبينه وعلمني أن النجاح لا يأتي إلا بالصبر والإصرار، إلى النور الذي أنار دربي
والسراج الذي لا ينطفئ نوره بقلبي أبداً، من بذل الغالي والنفيس واستمدت منه قوتي واعتزالي بذاتي ،
والدي العزيز

إلى التي جعلت الجنة تحت أقدامها وسهلت لي الشدائد بدعائها، إلى الإنسانية العظيمة التي لطالما تمت
أن تقر عينها لرؤيتي في يوم كهذا، أُمي العزيزة

إلى ضلعي الثابت وأمان أيامي ، إلى من شددت عضدي بهما فكانا لي ينابيع أرتوي منها ، إلى خيرة
أيامي وصفوتها ، زوجي العزيز " علي " وبنتي الحبيبة " مريم "

لكل من كان عوناً وسنداً في هذا الطريق، لعائلة زوجي و لأصدقائي الأوفياء ورفقاء السنين لأصحاب
الشدائد والأزمات

إلى من أفاضني بمشاعره ونصائحه المخلصة ، إليكم عائلتي، أهدىكم هذا الإنجاز وثمره نجاحي الذي
لطالما تمنيت، ها انا اليوم أكملت وأتممت أول ثمراته لفضله سبحانه وتعالى، فالحمد لله على ما وهبني
وأن يجعلني مباركا وأن يعينني أينما كنت، من قال أنا لها أنا لها، فأنا لها وإن أبت رغما عنها أتيت بها
فالحمد لله شكراً وحبا وامتنانا على البدء والختام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

أحلام باشوش

إهداء

قد تغيب الشمس يوما، وقد يغيب القمر يوما... لكن لن يغيب النور المتألق جنبي، لن تغيب معالم الحب والاحترام الراسخين في فؤادي

أمي روح جسد بجسد ملاك ، تحمل أعذب الصفات وأرقها، أول من بكى فرحا بي أول من رسم لي ألف باء التعامل مع الناس ، أنت ملكتي المتوجة بتيجان سماوية لا يراها إلا أهل القلوب المؤمنة ، أهديك أمني نجاحي بعد حياتي

إلى من علمني معنى الصبر والكفاح ، إلى الذي بقلبي جال، وحفر في ذاكرتي منذ الصبا، إلى الذي علمني أن من أراد أن يعطي لحياته معنى عليه أن يرسم لنفسه هدفا، إلى من سقى اللقمة من دمه، وقدمها لنا سائغة طيبة .

إلى من انتحرت كل الكلمات أمامه، ليقف اسمه ويتربع على عرش قلبي فيملكه إلى أبي العزيز رحمه الله.

إلى زوجي الغالي، وبناتي الحبيبات: نسيبة ، ماريما، جوري ، وصواف .

الزهرة بوخالفة

المقدمة

الرواية من أهم الأجناس الأدبية التي استطاعت أن تستوعب تحولات الإنسان المعاصر، وأن تعكس انشغالاته الوجودية والاجتماعية والفكرية، إذ لم تعد مجرد وسيلة للسرد والتخييل، بل غدت فضاءً رحباً لتمثيل الواقع ومساءلة تناقضاته، والكشف عن الأنساق الثقافية والسياسية التي تتحكم في تشكيل وعي الإنسان الفردي والجماعي. وقد أسهمت الرواية العربية الحديثة في هذا التحول، من خلال انفتاحها على القضايا الراهنة، ومعالجتها لموضوعات تتصل بالهوية والذاكرة والسلطة والموت والمنفى، ضمن رؤية جمالية وفكرية عميقة. وفي هذا السياق، تبرز رواية الموت عمل شاق للروائي السوري خالد خليفة بوصفها نصاً سردياً يشتبك مع الواقع السوري المأزوم، ويقدم تجربة إنسانية مركبة تنفتح على أسئلة الوجود والذاكرة والانتماء، من خلال رحلة ظاهرها نقل جثمان الأب إلى مثواه الأخير، وباطنها استعادة ذاكرة مثقلة بالتشظي والخذلان والفقد.

تتناول الرواية حكاية ثلاثة إخوة ينفذون وصية والدهم، المتمثلة في دفنه في قريته الأصلية، فتتحول الرحلة التي تبدو في ظاهرها فعلاً إنسانياً بسيطاً إلى مسار شاق محفوف بالمخاطر، في ظل واقع الحرب والتمزق الذي يعيشه المجتمع السوري. غير أن هذه الرحلة المادية لا تلبث أن تتجاوز بعدها الظاهري لتتحول إلى رحلة موازية داخل الذاكرة، حيث تتقاطع استرجاعات الشخصيات مع محطات الطريق، فتتكشف هشاشة العلاقات الأسرية، وعمق الجراح النفسية، وأثر التحولات السياسية والاجتماعية في تفكك الذات الإنسانية. ومن هنا، فإن الرواية لا تكتفي بسرد وقائع التنقل بين الأماكن، بل تجعل من الرحلة بنية رمزية تستوعب معاني الفقد والاقتلاع والبحث عن الخلاص.

كما تبرز الرواية العلاقة الوثيقة بين الجسد والذاكرة، فالجثمان الذي يُراد له أن يبلغ مكان دفنه يتحول إلى رمز ثقيل الدلالة، يستدعي الماضي بكل ما يحمله من صراعات وصمت وأسئلة مؤجلة. وتصبح حركة الانتقال عبر الأماكن استدعاءً لذاكرة الشخصيات، بما تحمله من توترات دفينة وصور منكسرة عن الأسرة والوطن والانتماء. وفي هذا السياق، يتداخل الزمان النفسي بالزمان الواقعي، ويتحول السرد إلى ممارسة استبطانية تستعيد الماضي بوصفه عبئاً لا يقل ثقلًا عن الجثمان ذاته. وهكذا، فإن الرواية تطرح سؤال الذاكرة لا باعتبارها مجرد استرجاع لما مضى، بل بوصفها قوة فاعلة في تشكيل الحاضر وتوجيه مصائر الشخصيات.

وتكشف الرواية كذلك عن دور المكان في تشكيل التجربة السردية، إذ لا يظهر الفضاء الروائي بوصفه خلفية محايدة للأحداث، بل يتحول إلى عنصر دلالي فاعل، يعكس الخراب الذي أصاب الإنسان والمجتمع معًا. فالطرق والحواجز والمدن والقرى ليست مجرد محطات عبور، وإنما علامات على التشظي والانقسام، ومرآة لحالة التصدع التي أصابت الوطن والذات. ومن خلال هذا التوظيف للمكان، ينجح الكاتب في بناء فضاء سردي مشحون بالدلالات الرمزية التي تكشف عن العلاقة المأزومة بين الإنسان وأرضه، وبين الذاكرة والواقع.

وتكتسي دراسة هذه الرواية أهمية خاصة، نظرًا لما تطرحه من قضايا إنسانية وفكرية تتصل بالموت بوصفه تجربة وجودية، وبالذاكرة باعتبارها مستودعًا للألم والهوية، وبالرحلة باعتبارها استعارة للبحث عن المعنى وسط الخراب. كما تكمن أهمية هذا الموضوع في الكشف عن البنية السردية التي اعتمدها الكاتب في تشييد نصه، وكيفية توظيفه لتقنيات الاسترجاع، وتعدد الأصوات، والتقطيع الزمني، والفضاء الرمزي، بما يمنح الرواية بعدها الجمالي والفكري. فضلًا عن ذلك، فإن هذه الدراسة تسهم في إبراز خصوصية التجربة السردية عند خالد خليفة، بوصفه أحد أبرز الأصوات الروائية العربية المعاصرة التي استطاعت أن تنقل مأساة الإنسان العربي بلغة سردية مكثفة وعميقة.

وانطلاقًا من ذلك، تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول:

- كيف تجسّد رواية الموت عمل شاق جدلية رحلة الجنان ورحلة الذاكرة من خلال بنائها السردية، وما الدلالات الفكرية والرمزية التي تنتج عن هذا التداخل؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات، من أبرزها.

كيف وظّف الكاتب الرحلة بوصفها بنية سردية مركزية في تشكيل النص؟

- ما طبيعة العلاقة بين الرحلة المادية للجنان والرحلة النفسية للذاكرة؟
- كيف أسهم الاسترجاع السردية في الكشف عن ماضي الشخصيات وتشكيل أبعادها النفسية؟
- ما الدور الذي يؤديه المكان في بناء الدلالة السردية داخل الرواية؟
- كيف عالجت الرواية سؤال الموت بوصفه تجربة وجودية تتجاوز بعدها الواقعي؟

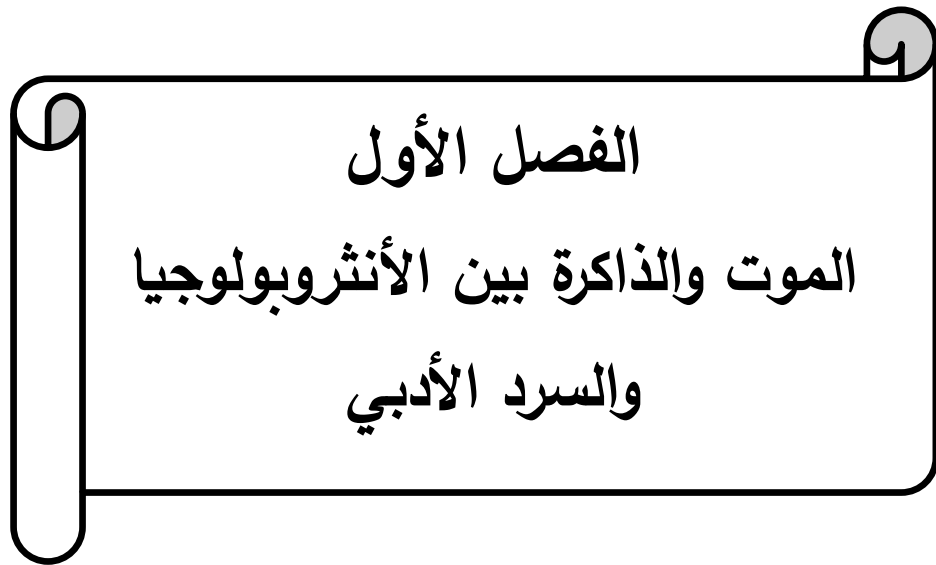
• ما طبيعة التداخل بين الواقعي والرمزي في تشكيل الخطاب الروائي؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، لما يتيح من إمكانيات في تفكيك البنية السردية وتحليل مكوناتها الفنية والدلالية، من خلال وصف الظواهر السردية والكشف عن وظائفها داخل النص. كما تم الاستعانة ببعض مفاهيم النقد السردى الحديثة، خاصة ما يتعلق ببنية الزمن الروائي، والفضاء السردى، وتقنيات الاسترجاع، وتحليل الشخصيات، وذلك بغية الوصول إلى قراءة معمقة تكشف عن الأبعاد الجمالية والفكرية للنص.

أما عن أسباب اختيار هذا الموضوع، فتتمثل في الرغبة في دراسة عمل روائي عربي معاصر يجسد مأساة الإنسان في ظل التحولات السياسية والاجتماعية العنيفة، إضافة إلى أهمية موضوع الذاكرة والموت في الأدب الحديث، لما يثيرانه من أسئلة فلسفية وإنسانية عميقة. كما أن خصوصية رواية الموت عمل شاق من حيث بناؤها الفني ودلالاتها الرمزية، فضلاً عن قلة الدراسات التي تناولتها من منظور سردي معمق، كانت من أبرز الدوافع لاختيارها موضوعاً للبحث.

وقد واجهت البحث بعض الصعوبات، من بينها كثافة الدلالات الرمزية التي يزخر بها النص، وتشابك المستويات الزمنية

والسردية، فضلاً عن تعدد المقاربات النقدية المتعلقة بتحليل الرواية الحديثة. غير أنه قد تم السعي إلى تجاوز هذه الصعوبات من خلال اعتماد قراءة منهجية متأنية، تستند إلى أدوات تحليلية واضحة، بهدف تقديم دراسة علمية تسهم في الكشف عن جماليات هذا العمل الروائي، وإبراز مكانته ضمن مسار الرواية العربية المعاصرة، بوصفه نصاً يعيد مساءلة الإنسان في مواجهة الموت والذاكرة والخراب.



الفصل الأول

الموت والذاكرة بين الأنثروبولوجيا
والسردي الأدبي

تمهيد:

الموت من القضايا الوجودية التي ترافق الإنسان منذ خلقه، هو ليس حدثاً بيولوجياً فحسب، بل موضوعاً ثقافياً واجتماعياً تحمل دلالات رمزية عميقة. وقد اهتمت الأنثروبولوجيا بدراساتها بوصفها مدخلاً لفهم البنى الثقافية للمجتمعات، من خلال تحليل الطقوس الجنائزية وممارسات الحداد وأساليب التعامل مع الفقد. فهذه الطقوس لا تعبر فقط عن الحزن، بل تسهم في تنظيم العلاقة بين الأحياء والموتى، وفي ترسيخ الذاكرة الجماعية داخل النسق الاجتماعي¹.

يشكل السرد الأدبي فضاءً خصباً لتمثيل تجربة الموت، حيث يتحول إلى عنصر بنائي يكشف عن أبعاد إنسانية ونفسية وتاريخية متعددة. فالرواية تستثمر حدث الموت لاستدعاء الماضي واستحضار الذكريات الفردية والجماعية، مما يجعل الذاكرة "محوراً أساسياً في بناء السرد. وفي هذا السياق، يلتقي الأدب بالأنثروبولوجيا في اهتمامهما المشترك بالإنسان، وبمحاولته الدائمة لإضفاء المعنى على تجربة الفقد والمعاناة"².

وتقوم العلاقة بين الموت والذاكرة على جدلية الحضور والغياب، إذ تُمكن الذاكرة من إبقاء الموتى حاضرين داخل الوعي الجمعي، بينما يفتح الموت المجال أمام السرد لإعادة تشكيل المعنى وإعادة قراءة التجربة الإنسانية³. وانطلاقاً من هذا التداخل، يسعى هذا الفصل إلى تقديم إطار نظري يبرز تقاطع الأنثروبولوجيا والسرد الأدبي في مقارنة الموت والذاكرة، تمهيداً لتحليل تجلياتهما في الرواية محل البحث.

¹ ينظر: أحمد زين الدين، الموت بين المجتمع والثقافة. القاهرة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2010، ص 29.

² محمد إبراهيم قشقوش، ذاكرة الموت: مقاربات ثقافية وفكرية، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر، 2012، ص 56.

³ ينظر : المرجع نفسه، ص 57.

فالموت في بعده الوجودي والثقافي لا ينفصل عن الذاكرة الجماعية، إنما يُعاد تشكيل معناه عبر الطقوس والممارسات الاجتماعية التي تحفظ حضور الراحلين في الوعي الإنساني. كما يبرز السرد الأدبي كفضاء يعيد إنتاج تجربة الموت والذاكرة معًا، بما يكشف عن عمقها الإنساني والدلالي.

المبحث الأول: أنثروبولوجيا الموت والذاكرة

اهتمّت الأنثروبولوجيا بالموت باعتباره من الظواهر المركزية و بوصفه حدثًا يتجاوز البعد البيولوجي إلى أبعاد ثقافية ورمزية. إذ تكشف ممارسات الدفن وطقوس الحداد عن تصوّرات المجتمعات للحياة والفقد والاستمرارية. وترتبط هذه الممارسات ارتباطًا وثيقًا بالذاكرة، باعتبارها آلية لحفظ حضور الموتى داخل الوعي الجماعي. فالذاكرة لا تقتصر على التذكّر الفردي، بل تشكّل بناءً اجتماعيًا تتوارثه الجماعات عبر الرموز والعادات. ومن خلال دراسة الموت، تسعى الأنثروبولوجيا إلى فهم كيفية تعامل الإنسان مع الفناء ومعنى الغياب.¹ ويُبرز هذا المنظور دور الذاكرة في تحويل الموت إلى تجربة ذات دلالة ثقافية. وانطلاقًا من ذلك، يهدف هذا المبحث إلى مقارنة مفهوم الموت وعلاقته بالذاكرة من منظور أنثروبولوجي

المطلب الأول: الموت في الدراسات الأنثروبولوجية

يُعَدّ الموت من المفاهيم المركزية التي شغلت اهتمام الدراسات الأنثروبولوجية منذ نشأتها، باعتباره ظاهرة إنسانية كونية تتجاوز حدود التفسير البيولوجي لتدخل في صميم البناء الثقافي والاجتماعي للمجتمعات. فالأنثروبولوجيا لا تنظر إلى الموت على أنه مجرد توقف الوظائف الحيوية للكائن البشري، بل تعتبره حدثًا اجتماعيًا محمّلًا بالرموز والدلالات، يعكس تصورات الجماعات حول الحياة والوجود والمعنى. ومن هذا المنطلق، أصبح الموت مجالًا خصبًا لدراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الجسد والثقافة، وبين الفناء والاستمرارية². و عليه يكون الموت حدثًا اجتماعيًا و ثقافيا مشحون بالرموز والدلالات. أهميتها تكمن في إبراز كيف يصبح الموت مدخلًا لفهم العلاقة بين الفرد والجماعة، وبين

¹ يُنظر، عبد الرحمان جنيدي، *أنثروبولوجيا الموت بين الوفاة والقتل*، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015، ص 85.

² يُنظر، أحمد زين الدين، الموت بين المجتمع والثقافة، ص 34.

الجسد والمعنى، وبين الفناء والاستمرارية. باختصار، النص يوضح أن دراسة الموت ليست مجرد رصد لنهاية الحياة، بل هي تحليل لبنية ثقافية تعكس تصورات المجتمعات عن الوجود والمعنى.

انطلقت الدراسات الأنثروبولوجية للموت من ملاحظة تنوع الطقوس الجنائزية واختلاف طرق التعامل مع الموتى من مجتمع إلى آخر. فقد بيّنت الأبحاث الميدانية أن كل جماعة بشرية تطوّر منظومة رمزية خاصة بها لفهم الموت وتقبّله، سواء من خلال طقوس الدفن، أو الحرق، أو التحنيط، أو غيرها من الممارسات التي تهدف إلى تنظيم لحظة الفقد والتخفيف من حدّته. وترى الأنثروبولوجيا أن " هذه الطقوس لا تؤدّي وظيفة دينية أو شعائرية فحسب، بل تلعب دورًا اجتماعيًا يتمثّل في إعادة التوازن إلى الجماعة بعد الصدمة التي يحدثها الموت"¹.

وقد أسهم علماء أنثروبولوجيا بارزون في بلورة مفهوم الموت ضمن إطار ثقافي، من أبرزهم برونيسلاف مالينوفسكي، الذي رأى أن الطقوس الجنائزية تمثّل استجابة جماعية للخوف من الفناء، ومحاولة رمزية للسيطرة على القلق الوجودي الذي يثيره الموت. فالموت، في نظره، يُهدّد استمرارية الجماعة، وتأتي الطقوس لتؤكد تماسكها وتضامن أفرادها. وبذلك يصبح الموت مناسبة لإعادة تأكيد القيم الاجتماعية والروابط الجماعية².

إن الأنثروبولوجيا تنظر إلى الموت بوصفه ظاهرة ثقافية واجتماعية تكشف عن تصورات المجتمعات للوجود والمعنى، وليس مجرد حدث بيولوجي. كما أن تنوع الطقوس الجنائزية يعكس اختلاف الرموز والممارسات بين الجماعات، ويؤدي وظيفة في إعادة التوازن الاجتماعي بعد الفقد. وقد أبرزت الدراسات

¹ محمد إبراهيم قشقوش، ذاكرة الموت: مقاربات ثقافية وفكرية، ص 59.

² ينظر: عبد الرحمان جنيدي، أنثروبولوجيا الموت بين الوفاة والقتل، ص 87.

الأنثروبولوجية، مثل أعمال مالفينوفسكي، أن هذه الطقوس تعكس مواجهة رمزية للخوف من الفناء. وبذلك يغدو الموت عنصراً أساسياً لفهم البنى الثقافية والتضامن الاجتماعي داخل المجتمعات.

ومن جهة أخرى، قدّم أرنولد فان جنيب تصوّراً مهماً للموت من خلال مفهوم "طقوس العبور"، حيث اعتبر الموت مرحلة انتقالية يمرّ بها الفرد من عالم الأحياء إلى عالم الموتى. ووفق هذا التصور، تخضع هذه المرحلة لسلسلة من الطقوس التي تتوزع بين الانفصال، والمرحلة الوسطى، ثم الاندماج في وضع جديد. ويظهر هذا التصور أن الموت ليس قطيعة نهائية، بل تحوّل رمزي في وضع الفرد داخل النسق الاجتماعي والكون¹.

كما اهتمّ عالم الأنثروبولوجيا مارسيل موس بالبعد الرمزي للموت، معتبراً أن "الجسد الميت يحمل قيمة ثقافية لا تقل أهمية عن الجسد الحي. فطريقة التعامل مع الجثمان، من تغسيل وتكفين ودفن، تعكس نظرة المجتمع إلى الجسد والروح، وإلى العلاقة بين المادي واللامادي. ومن هنا، فإن الموت يكشف عن أنساق التفكير العميقة التي تحكم رؤية الإنسان لذاته ولمصيره"². الجسد الميت لا يُعامل ككتلة بيولوجية خامدة، بل كحامل لمعانٍ ثقافية واجتماعية. فالممارسات المرتبطة بالجثمان . من تغسيل وتكفين ودفن . تكشف عن أنساق التفكير العميقة التي تحدد علاقة المجتمع بالجسد والروح، وبالمادي واللامادي. التعليق الأساسي هنا أن موس يفتح المجال لرؤية الموت كمرآة للثقافة، إذ يُظهر كيف تُترجم الطقوس الجنائزية إلى خطاب عن الهوية والمصير، وعن كيفية إدراك الإنسان لذاته في مواجهة الفناء.

وتولي الأنثروبولوجيا اهتماماً خاصاً للعلاقة بين الموت والذاكرة، إذ ترى أن الموت لا يُنهي حضور الفرد داخل الجماعة، بل ينقله إلى مستوى آخر من الوجود الرمزي. فالذاكرة الجماعية تقوم بدور أساسي

¹ ينظر: أحمد زين الدين، الموت بين المجتمع والثقافة. ، ص39.

² عبد الرحمان بدوي، الإنسان والموت: دراسة في الوعي والطقس، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 2008، ص 70.

في تخليد الموتى، سواء من خلال الحكايات، أو الطقوس السنوية، أو الرموز التذكارية. وبهذا المعنى، يصبح الموت عنصراً فاعلاً في بناء الذاكرة الجماعية، وليس مجرد حدث عابر في الزمن¹.

تبيّن الدراسات الأنثروبولوجية أن المجتمعات تستخدم الذاكرة كآلية لمقاومة النسيان، ولمنح الموت معنى يتجاوز الفقد الفردي. فالحديث عن الموتى، واستحضار أسمائهم وأفعالهم، يساهم في دمجهم داخل السرد الجمعي للجماعة. وهكذا يتحوّل الموت إلى نقطة انطلاق لإعادة بناء الهوية الجماعية، خاصة في المجتمعات التي عرفت الحروب أو الكوارث أو العنف الجماعي.

كما كشفت الأنثروبولوجيا المعاصرة عن تحولات مفهوم الموت في المجتمعات الحديثة، حيث أدت العلمنة والتطور الطبي إلى إبعاد الموت عن الفضاء العام وحصره في المؤسسات الصحية. وقد نتج عن ذلك نوع من القطيعة بين الإنسان والموت، مقارنة بالمجتمعات التقليدية التي كانت تتعامل معه بوصفه جزءاً من الحياة اليومية. وترى الأنثروبولوجيا الأنثروبولوجيا أن هذا التحول أثر في أنماط الحداد والذاكرة، وجعل الموت تجربة أكثر فردانية وعزلة². لم يعد الموت إذا جزءاً من الفضاء الاجتماعي اليومي كما في المجتمعات التقليدية، بل أصبح محصوراً في المؤسسات الطبية بفعل العلمنة والتطور التقني. هذا التحول أنتج قطيعة بين الإنسان والموت، وجعل تجربة الفقد أكثر فردانية وعزلة، وهو ما انعكس على طقوس الحداد والذاكرة الجماعية. التعليق الأساسي هنا أن الأنثروبولوجيا تكشف كيف تغيّر حضور الموت من كونه حدثاً جماعياً مشتركاً إلى تجربة شخصية منعزلة، بما يعكس تحولات أعمق في علاقة الإنسان بالوجود والمعنى.

¹ ينظر، عبد الرحمان بدوي، الإنسان والموت: دراسة في الوعي والطقس، ص 71.

² ينظر، محمد إبراهيم قشقوش، ذاكرة الموت: مقاربات ثقافية وفكرية، ص 63.

وتؤكد الدراسات الحديثة أيضًا أن الموت يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسلطة والخطاب، خاصة في سياقات العنف السياسي والحروب. فطريقة التعامل مع الجثامين، وطقوس الدفن أو منعها، تتحول إلى أداة للهيمنة أو المقاومة. ومن هنا، يصبح الموت مجالًا للصراع الرمزي، وتغدو الذاكرة ساحة لإعادة كتابة المعنى والتاريخ.¹

إن مفهوم الموت في الدراسات الأنثروبولوجية لا يُختزل في كونه نهاية للحياة، بل يُفهم باعتباره ظاهرة ثقافية مركبة تتداخل فيها الأبعاد الاجتماعية والرمزية والذاكرات الجماعية. فالموت، من منظور أنثروبولوجي، "يكشف عن كيفية فهم الإنسان لذاته، وعن الطرق التي يواجه بها الفناء عبر الطقس والرمز والسرد. وهذا الفهم يُعدّ أساسًا ضروريًا لمقاربة تمثيلات الموت في السرد الأدبي، خاصة في الرواية المعاصرة التي تجعل من الموت والذاكرة محورًا لبناء خطابها الإنساني."² بهذا تنظر الأنثروبولوجيا إلى الموت باعتباره ظاهرة ثقافية مركبة، لا مجرد نهاية بيولوجية. فهي تكشف أن الموت يفتح المجال لفهم الذات الإنسانية عبر الطقس والرمز والسرد، ويظهر كيف تتداخل الأبعاد الاجتماعية والرمزية والذاكرات الجماعية في تشكيل معنى الفناء. التعليق الأساسي هنا أن هذا التصور يجعل من الموت أداة تحليلية لفهم البنية الثقافية والخيال الجمعي، وهو ما يبرر انتقال الاهتمام إلى السرد الأدبي المعاصر الذي يوظف الموت والذاكرة كركيزة لبناء خطاب إنساني يتجاوز حدود الفرد ليعانق التجربة الجماعية.

يتضح من منظور مارسيل موس أن الموت يحمل بعدًا رمزيًا عميقًا يعكس تصورات المجتمع للجسد والروح، حيث تكشف الطقوس الجنائزية عن البنية الثقافية للمجتمع. كما تؤكد الأنثروبولوجيا أن الموت لا

¹ ينظر، عبد الرحمان بدوي، الإنسان والموت: دراسة في الوعي والطقس، ص 72.

² عبد الرحمان جنيدي، أنثروبولوجيا الموت بين الوفاة والقتل، ص 89.

يقطع وجود الفرد داخل الجماعة، بل يحوِّله إلى حضور رمزي تُحافظ عليه الذاكرة الجماعية. وبذلك يغدو الموت عنصراً أساسياً في تشكيل الهوية الجماعية وإعادة إنتاج المعنى داخل المجتمع.

المطلب الثاني: الطقوس الجنائزية كمرآة للثقافة والمجتمع

تُعدّ الطقوس الجنائزية من أبرز الممارسات الثقافية التي ترافق الموت في مختلف المجتمعات الإنسانية، إذ لا تقتصر وظيفتها على توديع الميت، بل تتجاوز ذلك لتشكّل نظاماً رمزياً يعكس رؤية المجتمع للحياة والموت والوجود. وتتنظر الأنثروبولوجيا إلى هذه الطقوس بوصفها مرآة تعكس البنية الاجتماعية والقيم الثقافية والعقائدية السائدة، كما تكشف عن طبيعة العلاقات بين الأفراد والجماعات في لحظات الفقد والألم. ومن هذا المنطلق، فإن دراسة الطقوس الجنائزية تمكّن الباحث من فهم أعمق لآليات تنظيم المجتمع لتجربة الموت واحتوائه¹.

تتمثّل الطقوس الجنائزية في "سلسلة من الأفعال الرمزية التي تبدأ منذ لحظة الوفاة، مروراً بتجهيز الجثمان، وانتهاءً بالدفن أو الحرق وما يليه من طقوس الحداد والتذكّر. وتختلف هذه الطقوس باختلاف الثقافات والديانات، إلا أنها تشترك في هدف أساسي يتمثّل في إضفاء معنى على الموت، وتحويله من حدث صادم وفوضوي إلى تجربة منظمة ومقبولة اجتماعياً. فالمجتمع، من خلال الطقس، يسعى إلى السيطرة على الخوف الذي يثيره الموت، وإلى إعادة التوازن الذي اختلّ بفعل غياب أحد أفراد²". وهنا يتضح لنا أن الوظيفة الرمزية للطقوس الجنائزية باعتبارها آلية اجتماعية تنظّم مواجهة الموت. فهي لا تقتصر على الإجراءات العملية لتجهيز الجثمان، بل تعمل على تحويل الموت من حدث صادم إلى تجربة مقبولة ومؤطرة بالمعنى. التعليق الأساسي أن الطقس الجنائزي يُعيد إنتاج النظام الاجتماعي، إذ يوفّر

¹ لينظر: فان جنيب أرنولد، *طقوس العبور* (ترجمة: عادل زعيتر)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، مصر، 2013، ص 45.

² دوركايم إميل، *الأشكال الأولية للحياة الدينية* (ترجمة: محمود إسماعيل)، دار المعارف، مصر، 2011، ص 86.

للجماعة وسيلة للسيطرة على الخوف وإعادة التوازن بعد فقد أحد أفرادها. بهذا المعنى، يصبح الطقس أداة لإعادة بناء الجماعة حول حدث الفقد، وتحويل الفوضى إلى نظام ومعنى.

وترى الأنثروبولوجيا أن الطقوس الجنائزية تؤدي وظيفة اجتماعية مزدوجة؛ فمن جهة، تساعد الأفراد على التعبير عن الحزن والفقد بطريقة مشروعة اجتماعيًا، ومن جهة أخرى، تعزز التضامن الجماعي من خلال المشاركة المشتركة في الطقس. فالحضور الجماعي في مراسم الدفن والعزاء لا يعبر فقط عن احترام الميت، بل يؤكد أيضًا تماسك الجماعة وقدرتها على مواجهة الفقد بشكل جماعي. وبذلك تتحول الطقوس الجنائزية إلى فضاء لإعادة إنتاج الروابط الاجتماعية وتقويتها¹.

وتحمل الطقوس الجنائزية بعدًا رمزيًا عميقًا، إذ ترتبط بالتصورات الثقافية حول الجسد والروح والحياة الآخرة. فطريقة التعامل مع الجثمان، سواء من حيث الغسل أو التكفين أو الدفن، تعكس نظرة المجتمع إلى الجسد الإنساني بعد الموت، وإلى العلاقة بين المادي والروحي. "ففي بعض الثقافات يُنظر إلى الجسد بوصفه وعاءً مقدسًا يستوجب الاحترام حتى بعد الوفاة، بينما تنظر ثقافات أخرى إلى الموت باعتباره تحررًا للروح من الجسد. وتكشف هذه الاختلافات عن أن الموت، رغم كونيته، يُفهم ويُمارس وفق مرجعيات ثقافية متباينة."²

كما تلعب الطقوس الجنائزية دورًا مهمًا في حفظ الذاكرة الجماعية، إذ تسهم في تخليد ذكرى الموتى داخل الوعي الاجتماعي. فالممارسات المرتبطة بالحداد، مثل زيارة القبور أو إقامة الذكريات السنوية، تضمن استمرار حضور الميت رمزيًا داخل الجماعة. وبهذا المعنى، تصبح الطقوس وسيلة لمقاومة

¹ ينظر، محمد إبراهيم قشقوش، ، ذاكرة الموت: مقاربات ثقافية وفكرية، ص 98.

² دوركايم إميل، الأشكال الأولية للحياة الدينية، تر: محمود اسماعيل، دار المعارف، مصر 2011، ص 87.

النسيان، وآلية للحفاظ على استمرارية الذاكرة الجماعية. فالطقس لا يقتصر على لحظة زمنية محددة، بل يمتد أثره في الزمن عبر التكرار والاستدعاء¹.

و يبرز هنا البعد الاستمراري للطقوس الجنائزية، فهي لا تقتصر على تنظيم لحظة الموت، بل تمتد لتؤسس حضوراً رمزياً دائماً للميت داخل الجماعة. التعليق الأساسي أن هذه الطقوس تعمل كآلية لحفظ الذاكرة الجماعية ومقاومة النسيان، من خلال التكرار والاستدعاء في الزيارات والذكرات السنوية. بهذا المعنى، يصبح الطقس الجنائزي ليس مجرد فعل رمزي عابر، بل خطاب ثقافي طويل المدى يضمن بقاء الميت جزءاً من الوعي الجمعي، ويعيد إنتاج الرابط بين الماضي والحاضر عبر الذاكرة المشتركة.

وتكشف الدراسات الأنثروبولوجية أن الطقوس الجنائزية تتأثر بشكل كبير بالبنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع. ففي المجتمعات التقليدية، غالباً ما تتسم الطقوس بطابع جماعي قوي، حيث تشارك العائلة الممتدة والقرية بأكملها في مراسم الدفن والحداد. أما في المجتمعات الحديثة، فقد أصبحت هذه الطقوس أكثر اختزالاً وفردانية، نتيجة لتغير أنماط العيش وتراجع الروابط الجماعية. وترى الأنثروبولوجيا أن هذا التحول يعكس تغيراً في علاقة الإنسان بالموت، وفي موقعه داخل الحياة الاجتماعية².

يتضح أن الطقوس الجنائزية تشكل آلية رمزية واجتماعية لتحويل الموت من حدث صادم إلى تجربة منظمة ذات معنى ثقافي. كما تؤدي وظيفة أساسية في تعزيز التضامن الاجتماعي والتعبير الجماعي عن الفقد، مما يعيد التوازن للجماعة. وتكشف هذه الطقوس عن اختلاف التصورات الثقافية حول الجسد والروح، بما يعكس تنوع فهم الموت بين المجتمعات. وبذلك، تمثل الطقوس الجنائزية فضاءً لحفظ الذاكرة الجماعية وترسيخ حضور الموتى داخل الوعي الاجتماعي.

¹ ينظر، الجيلالي عبد الله ، الطقوس الجنائزية في المجتمعات التقليدية: مقاربة أنثروبولوجية، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2016، ص 63.

² ينظر، عبد الرحمان، جندي أنثروبولوجيا الموت بين الوفاة والقتل ، ص 93.

وتبرز الطقوس الجنائزية أيضًا بوصفها مجالًا لتجلي السلطة والخطاب الاجتماعي. فطريقة تنظيم الجنازة، وحجم المشاركة فيها، ونوعية الطقوس المصاحبة لها، قد تعكس المكانة الاجتماعية للميت وأسرته. وفي بعض السياقات، تُستثمر الطقوس الجنائزية لتأكيد النفوذ أو لإعادة إنتاج التراتبية الاجتماعية. كما قد تتحوّل الجنازات في سياقات سياسية معيّنة إلى فضاءات للاحتجاج أو التعبير الجماعي، مما يمنح الموت بعدًا سياسيًا يتجاوز طابعه الفردي¹.

وفي سياق العنف والحروب، تكتسب الطقوس الجنائزية دلالات إضافية، حيث يصبح الجثمان رمزًا للذاكرة الجماعية وللمعاناة المشتركة. فقد بيّنت دراسات أنثروبولوجية عديدة أن منع الدفن أو تشويه الجثامين يُعدّ شكلاً من أشكال العنف الرمزي، يهدف إلى محو الذاكرة الجماعية وكسر الروح المعنوية للمجتمع. وفي المقابل، تتحوّل الطقوس الجنائزية إلى فعل مقاومة، تسعى من خلاله الجماعة إلى استعادة كرامة الموتى والحفاظ على ذاكرتهم².

ومن جهة أخرى، تبرز أهمية الطقوس الجنائزية في تمكين الأفراد من تجاوز الصدمة النفسية التي يُحدثها الموت. فالمشاركة في الطقوس تساعد على تقبّل الفقد، وتوفّر إطارًا نفسيًا واجتماعيًا للتعبير عن الحزن. وترى الأنثروبولوجيا أن غياب الطقوس أو اختلالها قد يؤثر سلبيًا في عملية الحداد، ويؤدي إلى شعور بالعزلة أو الفقد غير المكتمل. لذلك، تُعدّ الطقوس الجنائزية عنصرًا أساسيًا في إعادة التوازن النفسي والاجتماعي بعد الموت³. هذه الطقوس لا تقتصر على تنظيم البعد الاجتماعي للموت، بل تُقدّم إطارًا يساعد الأفراد على تجاوز الصدمة والتعبير عن الحزن بشكل جماعي. هي تعمل كوسيط بين الفرد والجماعة، إذ يُعيد التوازن النفسي والاجتماعي بعد الفقد، ويمنع شعور العزلة أو الحداد غير المكتمل.

¹ لينظر، عبد السلام الطرابلسي، *الطقس والرمز في الثقافة الشعبية*، دار الفارابي، لبنان، 2013، ص 102.

² لينظر، الجيلالي عبد الله، *الطقوس الجنائزية في المجتمعات التقليدية: مقارنة أنثروبولوجية*، ص 66.

³ لينظر، فان جنيب أرنولد، *طقوس العبور*، ص 78.

بهذا المعنى، يصبح الطقس أداة ضرورية لتأطير تجربة الموت، وتحويلها من صدمة فردية إلى ممارسة جماعية تُخفّف الألم وتُعيد إنتاج المعنى

وتؤكد الدراسات الحديثة أن الطقوس الجنائزية ليست ثابتة، بل تخضع للتحوّل والتكيف مع المتغيرات الثقافية والتكنولوجية. فقد ظهرت أشكال جديدة من إحياء الذكرى، مثل النصب التذكارية الرقمية ووسائل التواصل الاجتماعي، التي أصبحت فضاءً بديلاً للتعبير عن الحُداد والذاكرة. وترى الأنثروبولوجيا أن: "هذه التحولات تعكس قدرة الثقافة على إعادة ابتكار طقوسها، بما يتلاءم مع أنماط الحياة المعاصرة، دون التخلي عن الوظائف الرمزية الأساسية للموت".¹

إن الطقوس الجنائزية تشكّل مرآة صادقة تعكس الثقافة والبنية الاجتماعية للمجتمع. فهي تكشف عن منظومة القيم، وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية، وعن تصورات الإنسان للحياة والموت والذاكرة. وبذلك، فإن دراسة الطقوس الجنائزية من منظور أنثروبولوجي تتيح فهماً معمّقا للمجتمع ذاته، وتُعدّ مدخلاً أساسياً لتحليل تمثيلات الموت في السرد الأدبي، الذي يستثمر هذه الطقوس بوصفها عناصر دلالية وسردية تعبّر عن الوجدان الفردي والجماعي.²

يتضح أن الطقوس الجنائزية في سياقات العنف والحروب تتحول إلى فضاء رمزي لصراع الذاكرة، حيث يُصبح الجثمان علامة على المعاناة الجماعية ووسيلة لمقاومة محاولات الطمس والنسيان. كما تؤدي هذه الطقوس وظيفة نفسية مهمة في مساعدة الأفراد على تجاوز صدمة الفقد وتحقيق التوازن الداخلي بعد الموت. وفي ظل التحولات المعاصرة، ظهرت أشكال جديدة للحُداد تعكس التكيف الثقافي مع

¹ عبد السلام الطرابلسي، الطقس والرمز في الثقافة الشعبية، ص 104.

² ينظر، عبد الرحمان بدوي، الإنسان والموت: دراسة في الوعي والطقس، ص 82.

التكنولوجيا دون التخلي عن الوظيفة الرمزية للموت. وبذلك تظل الطقوس الجنائزية مرآة للبنية الاجتماعية والثقافية للمجتمعات.

المطلب الثالث: الذاكرة الفردية والجماعية بين الاستمرارية والانقطاع

تُعدّ الذاكرة من المفاهيم المركزية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لما لها من دور أساسي في تشكيل هوية الفرد والجماعة، وفي فهم العلاقة بين الماضي والحاضر. وقد اهتمت الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا بدراسة الذاكرة بوصفها بناءً اجتماعيًا وثقافيًا، لا يقتصر على التذكر الفردي، بل يتجاوز ذلك ليشمل أنماطًا جماعية من استحضار الماضي وإعادة تأويله. ومن هذا المنطلق، تُفهم الذاكرة باعتبارها مجالًا تتقاطع فيه التجربة الذاتية مع البنى الاجتماعية والرمزية¹.

تتميّز الذاكرة الفردية بارتباطها بتجارب الشخص الذاتية، وبما عاشه من أحداث ومشاعر وصدمات. فهي ذاكرة انتقائية، تتأثر بالحالة النفسية وبالزمن وبالسياق الاجتماعي الذي يُعاد فيه التذكر. ولا تمثل الذاكرة الفردية استعادة حرفية للماضي، بل هي عملية إعادة بناء مستمرة، يُعاد فيها ترتيب الأحداث وتأويلها وفق حاجات الحاضر. ولهذا، فإن التذكر الفردي لا ينفصل عن المحيط الاجتماعي والثقافي الذي ينتمي إليه الفرد².

وفي المقابل، تشير الذاكرة الجماعية إلى مجموع التمثيلات والتصورات المشتركة التي تحملها جماعة ما عن ماضيها. وقد ارتبط هذا المفهوم باسم موريس هالبفاكس، الذي أكد أن الذاكرة الفردية لا يمكن أن تتشكل خارج الأطر الاجتماعية. فاللغة، والطقوس، والرموز، والمؤسسات، كلها عناصر تُسهم في بناء

¹ ينظر، محمد بن خدة، *الأسطورة والواقع في الثقافة الجزائرية*، دار الثقافة، الجزائر، 2004، ص 49.

² ينظر، المرجع نفسه، ص 51.

ذاكرة جماعية تُوجّه طريقة تذكّر الأفراد لماضيهم. وبذلك، تصبح الذاكرة الجماعية إطارًا مرجعيًا يمنح المعنى للتجربة الفردية¹.

إن الذاكرة تُعدّ بنية اجتماعية وثقافية تُسهم في تشكيل هوية الفرد والجماعة من خلال ربط الماضي بالحاضر. كما أن الذاكرة الفردية لا تنفصل عن سياقها الاجتماعي، إذ تُعاد صياغتها وفق التجارب والحاجات الراهنة. وفي المقابل، تشكّل الذاكرة الجماعية إطارًا مشتركًا يُنظم عملية التذكّر عبر اللغة والرموز والطقوس. وبذلك تتكامل الذاكرتان في بناء فهم أعمق للتجربة الإنسانية.

وتقوم العلاقة بين الذاكرة الفردية والجماعية على تفاعل دائم، حيث تتغذى كل منهما من الأخرى. فالفرد يستمدّ أدوات التذكّر من الجماعة، بينما تُعاد صياغة الذاكرة الجماعية من خلال التجارب الفردية المتراكمة. غير أن هذا التفاعل لا يكون دائمًا متناغمًا، إذ قد يحدث توتر بين ما يتذكره الفرد وما تفرضه الذاكرة الجماعية، خاصة في السياقات التي تشهد صراعات أو تحولات اجتماعية عميقة.

وتبرز إشكالية الاستمرارية والانقطاع بوصفها محورًا أساسيًا في دراسة الذاكرة. فالاستمرارية تشير إلى " قدرة الذاكرة على حفظ الماضي ونقله عبر الأجيال، سواء من خلال السرد الشفهي، أو الطقوس، أو الرموز، أو النصوص. وتُعدّ هذه الاستمرارية عنصرًا حاسمًا في الحفاظ على الهوية الجماعية، إذ تمكّن الجماعة من الإحساس بالانتماء والتواصل مع تاريخها. فالذاكرة، في هذا السياق، تؤدي وظيفة توحيدية تربط الماضي بالحاضر"².

أما الانقطاع، فيرتبط باللحظات التي تتعرّض فيها الذاكرة للتشويه أو القطيعة، نتيجة الصدمات الكبرى مثل الحروب، أو الهجرات القسرية، أو العنف السياسي. ففي هذه الحالات، قد تُمحي أجزاء من

¹ ينظر، عبد السلام الطرابلسي، الطقس والرمز في الثقافة الشعبية، ص 110.

² عبد الحميد معزوز، الهوية والذاكرة في المجتمع الجزائري، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص 60.

الذاكرة، أو يُفرض عليها الصمت، أو يُعاد تشكيلها وفق خطاب سلطوي معيّن. وتُظهر الدراسات الأنثروبولوجية أن الانقطاع في الذاكرة لا يعني النسيان التام، بل غالبًا ما يتخذ شكل ذاكرة مكبوتة أو مجزأة، تعود للظهور في أشكال رمزية أو سردية.

وتلعب الذاكرة دورًا محوريًا في التعامل مع الموت والفقد، إذ تُعدّ وسيلة أساسية لمقاومة الغياب. فالذاكرة الفردية تحفظ صورة الميت داخل وجدان الشخص، بينما تعمل الذاكرة الجماعية على إدماج هذا الفقد ضمن سرد جماعي يمنحه معنى. ومن خلال الطقوس الجنائزية، والحداد، وإحياء الذكريات، يتم تحويل الموت من حدث فردي إلى تجربة مشتركة، تُسهم في ترسيخ الاستمرارية الرمزية داخل الجماعة¹.

غير أن هذه الاستمرارية قد تتعرض للانقطاع في سياقات العنف الجماعي، حيث يصبح الموت جماعيًا ومفاجئًا، وتفقّد الطقوس قدرتها على احتواء الفقد. ففي مثل هذه الحالات، تتصدّع الذاكرة الجماعية، ويجد الأفراد صعوبة في دمج تجاربهم الفردية داخل سرد جماعي متماسك. ويؤدي هذا الانقطاع إلى شعور بالتيه وفقدان المعنى، ويجعل الذاكرة مجالًا للصراع بين التذكّر والنسيان².

وتكشف الأنثروبولوجيا أن الذاكرة ليست مجرد مخزون ثابت، بل هي ممارسة اجتماعية تُعاد صياغتها باستمرار. فالجماعات تختار ما تتذكّره وما تنساه، وفق مصالحها وهويتها وخطاباتها السائدة. ومن هنا، فإن الذاكرة الجماعية "ليست بريئة أو محايدة، بل تخضع لعلاقات القوة والسلطة. ويظهر ذلك بوضوح في المجتمعات التي تعيش تحولات سياسية، حيث يُعاد كتابة التاريخ، وتُفرض روايات رسمية على حساب روايات فردية مهمّشة"³.

¹ ينظر: محمد بن خدة، الأسطورة والواقع في الثقافة الجزائرية، ص 50.

² ينظر، المرجع نفسه، ص 51.

³ مصطفى بلقاسم، الثقافة والهوية في الجزائر، قراءة أنثروبولوجية، دار المعرفة، الجزائر، 2015، ص 28.

وفي هذا السياق، يبرز السرد بوصفه أداة أساسية لإعادة بناء الذاكرة، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. فالحكاية تمكّن الأفراد من تنظيم تجاربهم المؤلمة، وتحويلها إلى خطاب قابل للمشاركة. كما يسمح السرد للجماعة بإعادة تأويل ماضيها، ومواجهة الانقطاعات التي أحدثتها الصدمات. ولذلك، "يُعدّ السرد وسيطاً بين الاستمرارية والانقطاع، وبين الذاكرة والنسيان"¹.

وتأخذ الذاكرة في المجتمعات المعاصرة أشكالاً جديدة، بفعل التطور التكنولوجي ووسائل الإعلام. فقد "أصبحت الذاكرة الرقمية فضاءً بديلاً لحفظ الذكريات، سواء الفردية أو الجماعية، من خلال الصور، ومقاطع الفيديو، والمنصات الاجتماعية. وترى الأنثروبولوجيا أن هذه التحولات أعادت تشكيل علاقة الإنسان بالماضي، وطرحَت أسئلة جديدة حول الاستمرارية، في ظل سرعة التغيّر وتراكم المعلومات"².

إن الذاكرة الفردية والجماعية تشكّان مجالاً ديناميكياً يتأرجح بين الاستمرارية والانقطاع. فالذاكرة "تسعى إلى حفظ الماضي ومنحه معنى، لكنها في الوقت ذاته عرضة للتشويه والنسيان والانكسار. ويُعدّ فهم هذه الجدلية ضرورياً لمقاربة تمثيلات الموت والذاكرة في السرد الأدبي، حيث تتحوّل الذاكرة إلى أداة للكشف عن الأزمات الفردية والجماعية، وعن محاولات الإنسان المستمرة لمقاومة الفناء عبر التذكّر والحكي"³.

إن استمرارية الذاكرة قد تتعرض للانقطاع في سياقات العنف الجماعي، حيث يفقد الموت معناه الطقوسي وتنشّط الذاكرة الجماعية. كما تؤكد الأنثروبولوجيا أن الذاكرة ممارسة اجتماعية قابلة لإعادة التشكيل وفق علاقات القوة والمصالح، وليست مخزّوناً ثابتاً للماضي. وفي هذا السياق، يلعب السرد دوراً

¹ عبد الحميد معزوز ، الهوية والذاكرة في المجتمع الجزائري ، ص 63.

² ينظر، المرجع نفسه، ص 64.

³ محمد بن خدة ، الأسطورة والواقع في الثقافة الجزائرية ، ص 52.

محوريًا في إعادة بناء الذاكرة وترميم الانقطاعات عبر تحويل التجارب إلى خطاب قابل للتداول. كما أن التحولات الرقمية أفرزت أشكالًا جديدة من الذاكرة، مما يعكس تغير علاقة الإنسان بالماضي. وبذلك تظل الذاكرة مجالًا ديناميكيًا يجمع بين الحفظ والنسيان وإعادة التشكيل المستمر.

المبحث الثاني: السرد الأدبي وثيقة أنثروبولوجية

يشكل السرد الأدبي أحد أبرز أدوات التعبير عن التجربة الإنسانية، فهو لا يقتصر على مجرد نقل الأحداث والحكايات، بل يمثل وثيقة ثقافية تعكس البنى الاجتماعية والقيم والممارسات المجتمعية. ومن منظور أنثروبولوجي، يمكن اعتبار الرواية أو القصة وسيلة لفهم العادات والتقاليد، والمعتقدات، والطقوس، بما في ذلك الطقوس الجنائزية واحتفالات الحياة اليومية، وهي بذلك تتقاطع مع دراسة الإنسان في سياقه الثقافي والاجتماعي. فالكتابة الأدبية تسجل الحياة الإنسانية بمختلف أبعادها الرمزية والمادية، وتتيح للقارئ الاطلاع على أساليب التفكير والسلوك في زمن ومكان محددين¹.

يتيح السرد الأدبي للباحث دراسة المجتمعات عبر ما يقدمه من صور وفضاءات وشخصيات، إذ يمكن قراءة الرواية أو القصة بوصفها مخزنًا للذاكرة الجماعية والفردية. فهي تسجل ممارسات الناس، وتكشف عن رموزهم، وتُظهر الطرق التي يتعاملون بها مع الموت والفقد، ومع القيم الأخلاقية والاجتماعية. ومن هذا المنظور، تصبح الرواية وسيلة لفهم كيف تنتظم الحياة الثقافية داخل المجتمع، وكيف يُعاد إنتاجها أو تحديها عبر الحكى².

وتتجلى أهمية السرد الأدبي في كونه يسمح بتجربة الواقع بطريقة مركبة، تجمع بين الملاحظة الواقعية والانغماس في العاطفة والتصورات الرمزية. فالأدب لا يقدم الوقائع وحدها، بل يضيف إليها أبعادًا ذاتية وثقافية تجعل من القارئ مشاركًا في بناء المعنى. وعليه، فإن "السرد الأدبي يمكن قراءته كوثيقة

¹ لينظر، تشيسون، *الذاكرة الاجتماعية والهوية والموت: منظور أنثروبولوجي للطقوس الجنائزية*، أوراق علم الآثار للجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا، 2001، ص 69.

² ينظر، سعيد المصري، *الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت*، مجلة ألف، الجزائر، 2022، ص 85.

أنثروبولوجية تقدم شروحات دقيقة حول الأنماط الاجتماعية، وتكشف عن القيم التي تُنظم حياة الأفراد داخل الجماعة.¹

إن السرد الأدبي يتجاوز كونه مجرد نقل للأحداث ليصبح وسيلة لفهم البنى الثقافية والاجتماعية للمجتمعات. كما يتيح قراءة الرواية باعتبارها سجلاً للذاكرة الجماعية التي تعكس الممارسات والقيم والطبوس المختلفة. ومن خلال هذا البعد، يساهم السرد في الكشف عن كيفية تنظيم الحياة داخل المجتمع وإعادة إنتاجها رمزياً. وبذلك يغدو الأدب وثيقة أنثروبولوجية تساعد على فهم الإنسان في سياقه الثقافي والاجتماعي.

وتسمح المقاربة الأنثروبولوجية بتحليل الرواية ليس فقط بوصفها نصاً فنياً، بل أيضاً كمرآة للمجتمع الذي أنتجها. فهي تبين كيف يتم التعامل مع المفاهيم الكبرى مثل الموت، والفقد، والاحتفال، والهوية، والسلطة، بما يعكس المعتقدات والممارسات اليومية للناس. كما يظهر السرد الأدبي كيف تُنتج الجماعات رموزها وتخزنها في الذاكرة، وكيف يتم نقل هذه الرموز بين الأجيال، سواء عبر الأحداث التاريخية أو التجارب الفردية.²

من خلال هذه القراءة، يمكن للباحث أن يستشف من الرواية عناصر الثقافة غير المكتوبة، والتي قد لا تُذكر في الدراسات الاجتماعية التقليدية. فالأدب قادر على الكشف عن الصراعات الداخلية والخارجية، وعن التوتر بين الفرد والجماعة، وعن التباينات بين الواقع والمثالي، وعن التكيف مع المتغيرات الاجتماعية والثقافية. وبذلك، يصبح النص الأدبي مصدراً موثقاً لدراسة البنية الثقافية للمجتمع، ولتحليل طبقوسه وقيمه الرمزية.

¹مصطفى بلقاسم، الثقافة والهوية في الجزائر، ص 35.

² ينظر، المرجع نفسه، ص 36.

ويُبرز الأدب الحديث والمعاصر بشكل خاص قدرة النص على التعامل مع الموت والذاكرة، عبر السرد الذي يعيد تشكيل الحدث التاريخي أو التجربة الفردية، ويعيد إنتاجها داخل سياق جماعي. "فالرواية المعاصرة لا تعمل فقط على نقل القصة، بل تشتغل على تأويل الرموز، واستحضار الذاكرة المفقودة، وربط الحاضر بالماضي بطريقة تجعل القارئ يدرك عمق التجربة الإنسانية."¹

كما يسمح السرد الأدبي بفهم العلاقة بين النص والواقع، بين الحكاية والتاريخ، وبين الفرد والمجتمع، فهو يشكّل فضاءً يمكن فيه استكشاف المعاني الخفية للطقوس والعادات والتقاليد. ومن خلال تحليل الشخصيات والأحداث، يستطيع الباحث الكشف عن أنماط السلوك الاجتماعي، وعن رموز السلطة والاحتفال، وعن الطرق التي يتم بها حفظ الذاكرة الجماعية.²

وبذلك، يصبح السرد الأدبي أداة أنثروبولوجية لا تقتصر على الجانب الجمالي أو الفني، بل تتجاوز ذلك لتصبح وثيقة اجتماعية وثقافية. فهي تقدم رؤية معمّقة للإنسان في سياقه، وتتيح فهم كيفية تعامل الأفراد والمجتمعات مع الموت، مع الفقد، ومع استمرارية الذاكرة. ومن هذا المنظور، يمكن القول إن الأدب يشكّل مصدراً غنياً لدراسة الإنسان والثقافة، ولتحليل الديناميات الاجتماعية والرمزية التي تُنظّم الحياة.

¹ إبراهيم كراش، «سلوى تيشات، مشكلة الذاكرة والنسيان في الأنثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور»، مجلة ألف اللغة والإعلام والمجتمع، الجزائر، 2023، ص 12.

² ينظر، سمير عبد الرحيم أغا، عتبات النص الروائي - رواية الصندوق الأسود أنموذجاً-، مجلة الحوار المتمدن، العدد 3351، على موقع:

المطلب الأول : العلاقة بين الأدب والأنثروبولوجيا

تُعَدّ العلاقة بين الأدب والأنثروبولوجيا من أكثر مجالات البحث خصوبة في الدراسات الإنسانية، إذ يتقاطع الأدب مع العلم الاجتماعي في تناول الإنسان وسلوكه، وعاداته، ومعتقداته، وتجربته اليومية. فالأدب، سواء كان رواية، قصة قصيرة، أو شعراً، يسجل خبرات الإنسان وممارساته الثقافية بطريقة فنية، في حين تسعى الأنثروبولوجيا إلى دراسة هذه الممارسات بصورة منهجية وتحليلية للكشف عن القيم الاجتماعية والرموز الثقافية. ومن هذا المنظور، يمكن اعتبار "الأدب وثيقة اجتماعية وأنثروبولوجية، تعكس ما يعيشه الفرد والجماعة داخل سياقهم الثقافي والتاريخي".¹

تتيح الرواية أو النص الأدبي للباحث دراسة المجتمعات من خلال تصويرها للشخصيات والأحداث، وللطرائق التي تتشكل بها العلاقات الاجتماعية، والطقوس، والعادات، والتقاليد. فالأدب ليس مجرد حكاية خيالية، بل هو تمثيل رمزي للواقع، يعكس البنية الاجتماعية ويكشف عن القيم والاعتقادات التي تحكم الحياة اليومية. ومن هذا المنظور، يصبح النص الأدبي أداة لفهم الثقافة بشكل أعمق، إذ يمكن قراءته كمرجع أنثروبولوجي يعكس أنماط السلوك والممارسات الرمزية.²

ويعتبر الأدب وسيلة لفهم الذاكرة الفردية والجماعية، إذ يتيح توثيق تجارب الماضي وحفظها في الوعي الاجتماعي. فالقصص والحكايات والروايات تنقل خبرات الأجيال السابقة، وتتيح فرصة استرجاع الرموز والطقوس الثقافية التي قد لا تظهر في الدراسات الأكاديمية التقليدية. ومن هذا المنطلق، يمكن للأدب أن يُبرز كيف تتشكل الذاكرة الجماعية، وكيف يتم إعادة إنتاجها أو إعادة تفسيرها عبر الزمن.³

¹ إبراهيم كراش، سلوى تيشات، مشكلة الذاكرة والنسيان في الأنثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور، ص 15.

² ينظر، سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، ص 91.

³ ينظر، تشيسون، الذاكرة الاجتماعية والهوية والموت: منظور أنثروبولوجي للطقوس الجنائزية، ص 71.

إن العلاقة بين الأدب والأنثروبولوجيا تقوم على تقاطع اهتمامهما بالإنسان بوصفه كائنًا ثقافيًا واجتماعيًا. فالأدب يعكس التجارب الإنسانية ويحوّلها إلى صور رمزية وفنية، بينما تسعى الأنثروبولوجيا إلى تحليل هذه الممارسات لفهم بنيتها ودلالاتها. كما تتيح الرواية قراءة المجتمع من خلال شخصياته وطقوسه وقيمه، بما يجعلها مرآة للواقع الثقافي. ويُسهّم الأدب في حفظ الذاكرة الجماعية وإعادة تشكيلها عبر السرد. وبذلك يصبح النص الأدبي أداة معرفية تساعد على فهم أعمق للثقافة والإنسان.

وتكشف المقاربة الأنثروبولوجية للأدب أن "النص لا يقتصر على نقل الوقائع، بل هو عملية إعادة بناء للواقع وفق منظور الكاتب وثقافته ومعتقداته. فالكاتب، من خلال اختيار الأحداث والشخصيات والفضاءات، يقوم بعملية تفسيرية تُحوّل التجربة الإنسانية إلى سرد يمكن تحليله وفهمه اجتماعيًا وثقافيًا. وهذا يتيح للباحثين دراسة المجتمع من زاوية غير مباشرة، عبر قراءة الرموز، والطقوس، والممارسات الاجتماعية التي يصورها النص الأدبي"¹.

ويظهر بشكل خاص في الرواية المعاصرة والأدب الواقعي، قدرة النص الأدبي على معالجة الأزمات الاجتماعية والثقافية، مثل الصراع بين التقليد والحداثة، أو بين الفرد والجماعة، أو بين السلطة والمجتمع المدني. فالأدب يقدم صورة دقيقة للإنسان في محيطه، ويعكس تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية على سلوكيات الأفراد والمجتمعات، مما يجعله وثيقة قيمة للأنثروبولوجيا الثقافية.

كما يتيح الأدب دراسة الطقوس الرمزية والاحتفالات والممارسات الاجتماعية، بما في ذلك الطقوس الجنائزية والاحتفالات المرتبطة بالحياة اليومية. فالنص الأدبي يسجل كيفية تعامل المجتمعات مع الموت، والحداد، والاحتفال، والعبادات، والعادات، ويظهر كيف يتم نقل هذه الممارسات عبر الأجيال، أو كيف

¹ سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، ص 92.

تُعاد تفسيرها في السياق الحديث. ومن خلال هذا التحليل، يمكن فهم الثقافة على أنها عملية ديناميكية تتغير وتتطور وفق الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية¹.

وتعتمد العلاقة بين الأدب والأنثروبولوجيا أيضًا على تفسير الرموز والمعاني المخفية داخل النصوص. فالرمز الأدبي لا يقتصر على الجمال الفني، بل يحمل دلالات ثقافية واجتماعية تُعبّر عن قيم المجتمع ونظامه الرمزي. ومن هذا المنظور، يصبح التحليل الأدبي أداة لأنثروبولوجيا الرموز، حيث يمكن كشف البنى الثقافية المخفية وراء السرد، والتعرف على نظام القيم والمعتقدات التي توطّر الحياة الجماعية².

وعلاوة على ذلك، فإن الأدب يمكّن الباحث من دراسة التاريخ الثقافي والاجتماعي من منظور جديد، إذ يقدم السرد الأدبي أبعادًا غير متوفرة في الوثائق الرسمية أو الدراسات التاريخية التقليدية. فالأدب قادر على توثيق التجارب اليومية للناس العاديين، بما في ذلك الطبقات المهمشة والمجتمعات الريفية، ويتيح استكشاف جوانب من الحياة الاجتماعية التي قد تغيب عن البحث الأنثروبولوجي المباشر³.

كما تسهم الرواية في دراسة الهوية والذاكرة الجماعية، إذ تعكس صراعات الفرد والجماعة، وتوضح كيف يُعيد المجتمع إنتاج ثقافته الرمزية عبر السرد. فالكاتب يعمل على نقل المعرفة الضمنية والممارسات الاجتماعية، ويحولها إلى نص يمكن تحليله واستخدامه كأداة لفهم المجتمع وثقافته. ومن هذا المنظور، يصبح السرد الأدبي وثيقة حية لفهم ديناميات الثقافة والمجتمع⁴.

¹ ينظر، تشيسون، الذاكرة الاجتماعية والهوية والموت: منظور أنثروبولوجي للطقوس الجنائزية، ص 72.

² ينظر، إبراهيم كراش، سلوى تيشات، مشكلة الذاكرة والنسيان في الأنثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور، ص 16

³ المرجع نفسه، ص 17.

⁴ ينظر، سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، ص 95.

وبالتالي، يمكن القول إن العلاقة بين الأدب والأنثروبولوجيا علاقة تفاعلية ومتكاملة، حيث يوفر الأدب المادة الخام للتفسير الأنثروبولوجي، بينما تمكن الأنثروبولوجيا من تحليل النص الأدبي بطريقة تكشف عن عمق المجتمع وثقافته. فالأدب يعكس الواقع الاجتماعي والثقافي، والأنثروبولوجيا توضح رموزه وممارساته، ويصبح هذا التفاعل وسيلة لفهم الإنسان في سياقه، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

وفي ضوء ما سبق، يمكن اعتماد الأدب كوثيقة أنثروبولوجية قادرة على نقل خبرات الحياة اليومية، والطقوس، والممارسات الثقافية، والذاكرة، والهوية، بما يتيح دراسة الإنسان في كل أبعاده الاجتماعية والثقافية. ويُبرز هذا المطلب الدور الحيوي للسرد الأدبي في التوثيق والتحليل، ويؤكد أهمية القراءة المشتركة بين الأدب والأنثروبولوجيا لفهم المجتمعات بشكل متكامل.

المطلب الثاني: السرد بوصفه حاملا للذاكرة الجماعية

يُعدّ السرد الأدبي أحد أكثر الوسائل قدرة على حفظ وتجسيد الذاكرة الجماعية للمجتمعات، فهو لا يقتصر على نقل الأحداث والتجارب الفردية، بل يعمل على توثيق التجارب المشتركة، والتقاليد، والممارسات الاجتماعية، والطقوس الثقافية التي تُشكّل هوية الجماعة. فالذاكرة الجماعية، بوصفها مصطلحاً سوسيولوجياً أنشأه موريس هالبفاكس، تشير إلى مجموع التصورات والممارسات التي يتقاسمها أفراد المجتمع حول ماضيهم المشترك، بما يحفظ استمرارية الثقافة ويربط الأجيال بعضها ببعض. وفي هذا السياق، يصبح السرد الأدبي وثيقة قيمة تُساهم في نقل هذه الذاكرة عبر الزمان¹.

¹ ينظر، جمال الدين المسعودي، الرموز والطقوس الشعبية في الجزائر: دراسة في الذاكرة الثقافية، دار الكتاب الجامعي، الجزائر، 2017، ص 37.

يسهم السرد في توثيق الأحداث التاريخية والاجتماعية التي أثرت في الجماعة، سواء كانت صراعات، أو حروبًا، أو هجرات، أو كوارث طبيعية، أو تغيرات اجتماعية وسياسية. فالرواية، والقصة، والحكاية الشعبية، تعمل على نقل تجربة الماضي بأسلوب يمكن للأجيال الجديدة استيعابه، مما يحفظ الذاكرة ويمنعها من الانقطاع. ومن هنا، يمكن القول إن "السرد الأدبي يضطلع بوظيفة معرفية وأخلاقية، فهو يُبقي حاضر الماضي حيًا داخل الوعي الجمعي"¹.

تتجلى أهمية السرد بوصفه حاملًا للذاكرة الجماعية في الطقوس الرمزية والممارسات الاحتفالية. فالرواية أو القصة قد تصوّر الطقوس الجنائزية، وطقوس الولادة، واحتفالات المجتمع، وعادات الحياة اليومية، لتصبح بذلك أداة لفهم كيف يُنظّم المجتمع تجربته الرمزية. فالكاتب، من خلال السرد، يعكس كيفية تعامل الجماعة مع الرموز والمعتقدات، وكيفية نقلها عبر الأجيال، سواء في سياق مستمر أو في لحظات الانقطاع التي تهدد الذاكرة.

كما يُظهر السرد الأدبي دور الشخصيات والأحداث الرمزية في تعزيز الذاكرة الجماعية. فالشخصيات تمثل فئات المجتمع المختلفة، وتعكس تنوع التجارب، بما يسمح للقارئ بفهم الأنماط الاجتماعية والثقافية. أما الأحداث، فهي لا تروي التاريخ فحسب، بل تعيد إنتاجه بطريقة تسمح بالوصول إلى المعاني الاجتماعية والثقافية العميقة، مما يجعل السرد وسيلة لفهم كيفية استمرارية الممارسة الثقافية والهوية الجماعية².

ولا يمكن إغفال الدور الذي تلعبه اللغة والأسلوب السرد في نقل الذاكرة الجماعية. فاللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي وعاء للثقافة، ووسيلة لنقل القيم والرموز والطقوس. ومن خلال الاختيار

¹ سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، ص 96.

² ينظر، تشيسون، الذاكرة الاجتماعية والهوية والموت: منظور أنثروبولوجي للطقوس الجنائزية، ص 75.

السردى للألفاظ، والجمل، والأسلوب، يخلق الكاتب سياقاً يمكّن القراء من استحضار الماضي وتذكره، وبالتالي المشاركة في إعادة إنتاج الذاكرة الجماعية بشكل حيّ وفعال¹.

وتبرز العلاقة بين السرد والذاكرة الجماعية أيضاً من خلال إعادة التأويل والتفسير المستمر للماضي. فالسرد يسمح بإعادة النظر في الأحداث التاريخية أو التجارب المشتركة وفق منظور جديد، مما يعكس الديناميكية الثقافية وقدرة المجتمع على التعامل مع التحديات والتغيرات. فالذاكرة الجماعية ليست ثابتة، بل تتشكل وتعاد صياغتها باستمرار، والسرد الأدبي هو الوسيلة الأساسية لذلك².

كما يعكس السرد الأدبي التوتر بين الاستمرارية والانقطاع في الذاكرة. ففي بعض الحالات، قد تتعرض المجتمعات لصدمات تجعل الذاكرة الجماعية مهددة بالانقطاع، مثل الحروب أو القمع أو الهجرة القسرية. وفي هذه الحالات، يصبح السرد وسيلة للمقاومة، إذ يسمح بإحياء الذكريات، واسترجاع الرموز الثقافية، والحفاظ على الهوية الجماعية. فالقصص والحكايات تُمكن المجتمع من مواجهة النسيان وإعادة إنتاج ذاته³.

ويُظهر الأدب الشعبي، على نحو خاص، قدرة النصوص السردية على استمرار نقل القيم والمعارف الرمزية عبر الأجيال. فالأساطير والحكايات الشعبية والروايات التقليدية تعمل كخزان للمعرفة الجماعية، وتتيح فهم الطريقة التي يتعامل بها المجتمع مع الموت، والحياة، والطقوس، والرموز الثقافية. ومن هذا المنظور، يصبح السرد الأدبي أداة لأنثروبولوجيا الذاكرة، حيث يمكن للباحث دراسة المجتمع عبر نصوصه الأدبية.

¹ ينظر، جمال الدين المسعودي، الرموز والطقوس الشعبية في الجزائر: دراسة في الذاكرة الثقافية، دار الكتاب الجامعي، الجزائر، ص 38.

² ينظر، إبراهيم كراش، سلوى تيشات، مشكلة الذاكرة والنسيان في الأنثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور، ص 18.

³ ينظر، سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، ص 97.

كما يمكن للسرد الأدبي أن يعكس التجربة الجماعية للمعاناة والاضطراب الاجتماعي. فالقصص التي تتناول الحروب، أو النزاعات، أو الظلم الاجتماعي، تقدم رؤية حية لكيفية تأثير الأحداث الكبرى في تشكيل الذاكرة الجماعية، وكيفية تفاعل الأفراد معها. وهكذا يتحوّل السرد إلى وسيط يربط بين الفرد والجماعة، بين الوعي الشخصي والموروث الثقافي، ويصبح أداة لفهم الصراع بين النسيان والتذكر¹.

ويتيح السرد أيضًا إعادة بناء الهوية الجماعية من خلال الاحتفاء بالرموز المشتركة، واستدعاء الشخصيات البطولية، وتوثيق الأحداث الفارقة في التاريخ المحلي أو الوطني. فالرواية تساهم في رسم خريطة للذاكرة الجماعية، وتوضح كيف تُعاش القيم والأحداث الرمزية داخل المجتمع، وما هي الوسائل التي يستخدمها الأفراد للحفاظ على تماسك الهوية².

كما يسمح السرد بتحليل التفاعلات بين الفرد والجماعة، بين التجربة الخاصة والعامة، وبين الواقع والرمز. فالأدب يعكس كيف يساهم الأفراد في نقل الثقافة وإعادة إنتاجها، وكيف يُعيد المجتمع تفسير ماضيه، وكيف تتشكل الذاكرة الجماعية من خلال التفاعل المستمر بين التجارب الفردية والممارسة الثقافية المشتركة³.

وبالتالي، يمكن القول إن السرد الأدبي بوصفه حاملًا للذاكرة الجماعية يمثل أداة مركزية لدراسة الثقافة والمجتمع، فهو لا ينقل الأحداث فحسب، بل يضمن استمرار الرموز والقيم والمعاني، ويتيح للفرد والجماعة الحفاظ على هويتهما الثقافية. ومن خلال دراسة السرد، يمكن للباحثين فهم الديناميات الاجتماعية، والطقوس الثقافية، وعلاقة الإنسان بالزمن والذاكرة، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

¹ ينظر، يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، دار الفرابي للنشر، بيروت، لبنان، 2010، ط3، ص 44.

² ينظر، إبراهيم شوقي، الرمزية في السرد العربي، دار الكتب العلمية، مصر، 2008، ص 62.

³ المرجع نفسه، ص 63.

يتضح أن السرد الأدبي يشكّل أداة أساسية لحفظ الذاكرة الجماعية من خلال توثيق التجارب التاريخية والاجتماعية ونقلها عبر الأجيال. كما يساهم في تجسيد الطقوس والقيم والرموز الثقافية، مما يضمن استمرارية الهوية الجماعية رغم التحولات والصدمات. ويؤدي السرد دورًا مهمًا في إعادة تفسير الماضي وإعادة بناء الذاكرة وفق السياقات الجديدة، مما يعكس ديناميتها وعدم ثباتها. كما يعمل على مواجهة النسيان من خلال استحضار الأحداث والشخصيات الرمزية. وبذلك يغدو السرد وسيطًا بين الفرد والجماعة في تشكيل الوعي والذاكرة المشتركة.

المطلب الثالث: الموت بوصفه سرديّة: من الواقعي إلى الرمزي

يمثل الموت أحد أكثر المواضيع حضورًا في الأدب الإنساني، فهو تجربة كونية تتجاوز الفرد لتطال الجماعة، وتشكل محورًا لفهم الهوية والذاكرة والقيم الثقافية. وقد اهتم الأدب منذ القدم بسرد تجربة الموت، سواء من منظور واقعي يوثق الحدث كما وقع، أو من منظور رمزي يحول الموت إلى عنصر دلالي يعكس المعتقدات والقيم والرموز الثقافية للمجتمع. وفي هذا السياق، يمكن اعتبار الموت ليس مجرد نهاية بيولوجية للحياة، بل تجربة إنسانية متعددة الأبعاد يمكن للسرد الأدبي أن يكشف عنها ويعيد إنتاجها بأساليب متنوعة¹.

1. الموت في السرد الواقعي

يتمثل السرد الواقعي في تناول الموت من خلال تصوير الأحداث كما وقعت، دون تجميل أو رمزية مبالغ فيها. فالرواية الواقعية تركز على الجوانب الحياتية والمادية للموت: الوفاة الفعلية، ممارسات الدفن، الحزن الشخصي، والتأثير النفسي والاجتماعي على الأحياء. ومن هذا المنطلق، يقدم الأدب الواقعي

¹. ينظر، إبراهيم شوقي، الرمزية في السرد العربي، ص 64.

وصفًا دقيقًا لتجربة الموت، يعكس طبيعة العلاقات الاجتماعية، والتقاليد، والممارسات اليومية، ويتيح للقارئ فهم كيفية تعامل المجتمع مع الفقد¹.

هذا يتيح للباحث دراسة التأثير الاجتماعي للموت، من حيث إعادة تنظيم الجماعة بعد فقد أحد أفرادها، ومشاركة الأفراد في الطقوس الجنائزية، وعملية الحداد والحد من الفوضى الناتجة عن فقدان أحدهم. ويظهر ذلك بوضوح في الروايات التي تصوّر المجتمعات التقليدية، حيث تكون الطقوس الجنائزية جزءًا من النظام الرمزي والاجتماعي الذي يحافظ على توازن المجتمع بعد الوفاة.

2. الموت في السرد الرمزي

على عكس السرد الواقعي، يعمل السرد الرمزي على تحويل الموت إلى تجربة تتجاوز الواقعية المادية، لتصبح عنصرًا دلاليًا غنيًا بالمعاني. ففي هذا النوع من السرد، لا يقتصر الموت على الحدث البيولوجي، بل يصبح رمزًا للتحويل، والانقطاع، والاستمرارية، والنهاية والمعنى، ويمكن أن يمثل مرحلة رمزية في رحلة الشخصية أو الجماعة. ويتيح هذا النوع من السرد استكشاف المعتقدات الدينية والثقافية، وفهم القيم الرمزية التي يحيط بها المجتمع تجاربه المرتبطة بالموت.

ويشير التحليل الأنثروبولوجي إلى أن الرمزية في الموت تُعبّر عن التحولات النفسية والاجتماعية التي تطرأ على المجتمع والأفراد، فهي تسهم في توجيه الحزن، واستيعاب الفقد، وإعادة إنتاج الهوية الجماعية. فالرموز المرتبطة بالموت، مثل الجنازات، الحداد، تكريم الميت، أو حتى تصورات الحياة بعد الموت، تُعيد إنتاج تجربة الموت بشكل يجعلها قابلة للفهم والمشاركة داخل الجماعة².

¹ ينظر، يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، ص 45.

² ينظر، سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، ص 110.

3. الانتقال من الواقعي إلى الرمزي

يُظهر الأدب كيف تتحول التجربة الواقعية للموت إلى رمزية تحمل دلالات أعمق. فالتفاصيل الواقعية للموت، مثل مراسم الدفن، تعامل الأسرة مع الجثمان، أو صدمة الفقد، تُستخدم في السرد لتوليد رمزية ثقافية ونفسية. وبذلك، يصبح الموت أداة للسرد ليست فقط لنقل الحدث، بل لإنتاج المعنى. وتتيح هذه العملية للكاتب أن يعيد تشكيل الموت في ضوء التجربة الإنسانية الشاملة، ويحوّله إلى عنصر سردي يثري النص ويمنحه بعداً فلسفياً وثقافياً¹.

و يتيح هذا الانتقال دراسة التفاعل بين الفرد والجماعة عند مواجهة الموت، إذ تصبح الممارسة الواقعية جزءاً من شبكة الرموز الجماعية، وتتحول التجربة الفردية إلى ذاكرة جماعية متاحة للبحث والتحليل. ويظهر هذا بوضوح في "الروايات التي توظف الموت كرمز للمعاناة، للهوية، وللتاريخ الاجتماعي، فتكون الشخصية أو الجماعة وسيلة لاستكشاف البعد الرمزي للموت"². بهذا المعنى، يصبح الموت في الرواية المعاصرة ليس مجرد حدث سردي، بل أفقاً نقدياً لفهم البنية الرمزية للمجتمع.

4. الموت والذاكرة والسرد

يشكل الموت أيضاً محوراً رئيسياً لفهم الذاكرة الجماعية والفردية. ففي الرواية، يتم توثيق تجربة الموت، وتسجيل المشاعر، والطقوس، والتقاليد، لتصبح هذه التجربة جزءاً من السرد الذي يحفظ الذاكرة. "السرد الواقعي يقدم الوقائع والأحداث كما وقعت، بينما السرد الرمزي يضيف طبقة من المعاني الرمزية التي تتيح تفسيراً أعمق للواقع، وفهم تأثير الموت في تشكيل الوعي الفردي والجماعي"³. إنه بذلك يفتح

¹ سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية، ص 111.

² يمينى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، ص 46.

³ المرجع نفسه، ص 48.

المجال أمام الأدب ليكون وسيطاً بين التاريخ الاجتماعي والرموز الثقافية، حيث يتجسد الموت كعلامة على المعاناة والوجود، وكأفق لتأمل الذاكرة الإنسانية.

5. الموت كرمز ثقافي

يمكن اعتبار الموت في الأدب رمزاً للانقطاع والاستمرارية، فهو يمثل نهاية الحياة المادية، ولكنه في الوقت ذاته يتيح إعادة إنتاج الهوية الجماعية والذاكرة الثقافية. ويتيح السرد الرمزي للأدب أن يعكس المعتقدات الدينية، والقيم الأخلاقية، والطقوس الاجتماعية المرتبطة بالموت، بما يربط الفرد بالجماعة، ويحول التجربة الفردية إلى خبرة جماعية يمكن قراءتها وتحليلها أنثروبولوجياً¹. بهذا المعنى، يصبح الموت في النص الأدبي فضاءً للتأمل في علاقة الفرد بالجماعة، وللكشف عن كيفية تداخل الرمزي والاجتماعي في صياغة الوعي الجمعي، مما يمنح الأدب وظيفة مزدوجة: توثيق الواقع وإعادة إنتاجه عبر الرموز والمعاني.

6. أهمية السرد الأدبي في دراسة الموت

من خلال دراسة الموت في السرد الأدبي، يمكن للباحث أن:

- يفهم كيف تُنظّم المجتمعات تجربتها مع الفقد والموت.
- يدرس الطقوس والرموز المرتبطة بالموت.
- يتابع العلاقة بين الفرد والجماعة في التعامل مع النهاية.
- يحلل استمرارية الذاكرة الثقافية والجماعية عبر السرد الرمزي².

¹ يمينى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، المرجع نفسه، ص 49.

² المرجع نفسه، ص 50.

وبالتالي، يمثل الموت بوصفه سردية جسراً بين الواقعي والرمزي، الفردي والجماعي، التاريخي والثقافي، ويتيح للأدب أن يكون وثيقة أنثروبولوجية لفهم الإنسان ومجتمعه في أبعاد متعددة.

المبحث الثالث: رواية الموت عمل شاق في سياقها الأدبي و الاجتماعي

تُعدّ رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة واحدة من الأعمال الأدبية البارزة التي تجمع بين السرد الفني والتحليل الاجتماعي، فهي لا تقتصر على سرد الأحداث الفردية بل تمتد لتكشف عن واقع اجتماعي وسياسي واجهته المجتمعات العربية المعاصرة. وتمثل الرواية نافذة لفهم تجربة الإنسان في مواجهة الصراعات، الفقد، والموت، من خلال شخصياتها وأحداثها المتشابكة، ما يجعلها وثيقة ثقافية تحمل قيمًا رمزية وتاريخية في آن واحد¹.

توظف الرواية الموت بوصفه تجربة حياتية وشكلًا من أشكال المقاومة الرمزية، فهي توثق معاناة الأفراد والجماعات وتطرح التساؤلات حول الهوية، العدالة، والانتماء. ومن هذا المنظور، يمكن النظر إليها على أنها أكثر من مجرد نص أدبي، فهي دراسة للإنسان والمجتمع، تجمع بين البعد النفسي للشخصيات والبعد الاجتماعي للتجربة الجماعية².

كما تعكس الرواية تأثير التاريخ والسياسة على الحياة اليومية، وتبرز الصراعات الاقتصادية والاجتماعية التي تواجه الشخصيات، " ما يتيح للقارئ فهم السياق الاجتماعي الذي يحيط بهم. وتقدم الرواية بذلك رؤية معمقة للتجربة الإنسانية، حيث يصبح السرد أداة لفهم التغيرات الثقافية والاجتماعية التي تشكل وعي الأفراد والجماعات " ³.

من الناحية الأدبية، تمزج الرواية بين الواقعية والتجريب السردية، فتوظف أساليب متعددة لنقل المشاعر والتجارب الفردية، وفي الوقت ذاته، توثق الطقوس والرموز الجماعية، لتصبح بذلك " حلقة

¹ ينظر، سعيد المصري ، الغناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت ق، ص 113.

² ينظر، فؤاد بنيس ، السرد والموت: قراءة في النص الروائي العربي، دار مدى، لبنان، 2012، ص 25.

³ المرجع نفسه ، ص 27.

وصل بين الذاكرة الفردية والجماعية. وتكشف الرواية عن قدرة الأدب على تقديم قراءة شاملة للإنسان في سياقه الاجتماعي والثقافي، من خلال توظيف الحدث والرمز والسرد الفني¹.

وبهذا، يُمكن اعتبار رواية الموت عمل شاق نصًا أدبيًا أنثروبولوجيًا بالمعنى الواسع، فهي تجمع بين التحليل النفسي للشخصيات، واستكشاف الظواهر الاجتماعية، وإعادة إنتاج الذاكرة الجماعية، مما يجعلها مادة غنية لدراسة العلاقة بين الأدب، المجتمع، والثقافة في سياقها العربي المعاصر.

المطلب الاول :خالد خليفة ومسار الكتابة السورية الحديثة

يُعدّ خالد خليفة أحد أبرز الأصوات الأدبية في سوريا والعالم العربي المعاصر، وهو كاتب وروائي يواجه من خلال أعماله القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشتها سورية خلال العقود الماضية. بدأت مسيرته الأدبية في فترة اتسمت بالتحوّلات السياسية والاجتماعية العميقة، والتي انعكست في طبيعة الإنتاج الأدبي السوري، حيث اتجهت الكتابة الحديثة نحو معالجة القضايا اليومية للإنسان السوري، مع التركيز على البعد النفسي والاجتماعي للشخصيات، والتفاعل مع الأحداث السياسية والتاريخية².

تتميز كتابة خالد خليفة بالجرأة في تناول مواضيع حساسة، مثل القمع، الحرب، والفساد الاجتماعي والسياسي، مع التركيز على أثر هذه الأحداث على الفرد والجماعة. وتستند رواياته إلى دراسة عميقة للواقع الاجتماعي، مما يجعل أعماله محط اهتمام الباحثين في الأدب والأنثروبولوجيا الثقافية على حد

¹ أيمن العبد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، ص 52.

² ينظر: كمال الرياحي، الموت عمل شاق -رواية تلخص المحنة السورية-، شبكة الجزيرة الإعلامية، بتاريخ 2016/01/05 على موقع : www.aljazeera.net

سواء. فالرواية عنده ليست مجرد سرد للأحداث، بل هي أداة لفهم المجتمع وتحليل أبعاده الثقافية والنفسية والسياسية¹.

وقد جاءت أعمال خليفة في سياق الكتابة السورية الحديثة التي اتسمت بالانفتاح على الواقع الاجتماعي، ومحاولة توثيقه ونقده في آن واحد. فالسرد السوري المعاصر، بما في ذلك أعمال خليفة، يمزج بين الواقعية المعيشية والرمزية، ويعالج مواضيع الهوية، الاغتراب، الفقد، والصراعات الداخلية والخارجية التي تواجه المجتمع السوري. وبذلك، تُمثل أعماله جسراً بين الواقعية اليومية والتأمل الرمزي، ما يتيح للقراء فهم الحياة السورية في أبعادها المتعددة.

تتناول أعمال خالد خليفة أيضاً موضوع الموت والفقد الجماعي والفردى، حيث يظهر تأثير القمع والحرب والاضطرابات على المجتمع السوري. وفي هذا الإطار، يمكن القول إن رواياته تمثل توثيقاً ثقافياً واجتماعياً للذاكرة الجماعية، إذ تجمع بين السرد الواقعي والتجربة الرمزية، لتوضح كيف يتعامل الفرد والجماعة مع الموت، الفقد، والتهجير، والقيود السياسية.

وعلى الصعيد الأسلوبي، يمزج خليفة بين لغة مباشرة وواقعية، ولغة رمزية غنية بالدلالات الثقافية والتاريخية. فاختيار الأسلوب السردى، وتقنيات الوصف، والحوار الداخلي للشخصيات، كل ذلك يتيح للكاتب تقديم تجربة إنسانية شاملة، تجمع بين الفرد والجماعة، وبين الحاضر والماضي، وبين الواقعي والرمزي. وتعتبر هذه المزاجية بين الأسلوب الواقعي والرمزي أحد أبرز سمات الكتابة السورية الحديثة، والتي يبرزها خالد خليفة بقوة في أعماله².

¹ ينظر، يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، ص 54.

² ينظر، حميد لحداني، بنية النص السردى - من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص 32.

كما " يعكس مسار خالد خليفة الأدبي الانخراط في قضايا المجتمع السوري بشكل مباشر وغير مباشر، إذ تتناول رواياته القهر السياسي والاجتماعي، والأثر النفسي للحرب، والتوتر بين الفرد والمجتمع. ومن هذا المنطلق، يمكن اعتباره جزءاً من الكتابة السورية الحديثة التي تحمل وظيفة مزدوجة: تقديم صورة واقعية للمجتمع، وفي الوقت نفسه توظيف السرد كأداة تحليلية لفهم البنى الاجتماعية والثقافية والنفسية"¹.

بالإضافة إلى ذلك، يمثل خالد خليفة نموذجاً للكاتب السوري الذي يوازن بين الالتزام الأخلاقي والسياسي، وبين الحرية الإبداعية للسرد، حيث يظهر في رواياته اهتماماً بالإنسان الفردي وتجربته الخاصة، دون إغفال السياق الاجتماعي والتاريخي الأوسع. ويجعل هذا التوازن أعماله صالحة للدراسة الأدبية الأنثروبولوجية، إذ يمكن من خلالها فهم العلاقة بين النص الأدبي والمجتمع، وبين الشخصيات والهوية الثقافية.

وبالتالي، فإن دراسة خالد خليفة ومسار الكتابة السورية الحديثة تتيح فهم كيف تطورت الرواية السورية خلال العقود الأخيرة، وكيف تعاملت مع القضايا الإنسانية والاجتماعية والسياسية، وكيف وظفت السرد كأداة لحفظ الذاكرة الجماعية والفردية. ويتيح هذا المطلب للقارئ الاطلاع على السياق العام الذي أنتج رواية الموت عمل شاق، وفهم الخصائص المميزة للكتابة السورية الحديثة التي تتقاطع مع الأنثروبولوجيا الثقافية.

يتضح أن السرد الأدبي في مقارنته لتجربة الموت يتجاوز الوظيفة التوثيقية إلى بناء دلالات رمزية تعكس أبعاداً إنسانية وثقافية عميقة، حيث يتحول الموت إلى عنصر مركزي في تشكيل الذاكرة الفردية والجماعية. كما يبرز التداخل بين الواقعي والرمزي في تمثيل الموت، بما يسمح بفهم أعمق للعلاقة بين

¹ هاجر مبارك، أزمة الرواية العربية في ظلّ المتغيرات الحضارية-الهوية بين التخلي والحنين، مجلة مقاليد، العدد 08، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، الجزائر، جوان 2015، ص 28.

الفرد والجماعة في مواجهة الفقد والصدمات. وفي هذا السياق، يغدو الأدب وسيلة لتحليل البنى الاجتماعية والطبقات الثقافية المرتبطة بالموت وإعادة إنتاجها سرديًا. كما تكشف رواية الموت عمل شاق عن قدرة السرد على توثيق المعاناة الإنسانية ضمن سياق اجتماعي وسياسي معقد. وبذلك، يصبح الأدب وثيقة أنثروبولوجية تسهم في فهم الإنسان ومجتمعه عبر الذاكرة والموت والرمز.

المطلب الثاني: الرواية مرآة الحرب السورية الحديثة و الذاكرة الممزقة

تُعد الحرب السورية واحدة من أكثر الصراعات تأثيرًا على المجتمع السوري في العصر الحديث، وقد انعكست آثارها على جميع مناحي الحياة، بما في ذلك الأدب السوري. فقد أصبحت الرواية السورية الحديثة وسيلة لرصد وتوثيق هذه الحرب، وتحليل تأثيرها النفسي والاجتماعي على الفرد والجماعة، وتقديم سرد يعكس التجربة الإنسانية في ظل الصراع الدموي المستمر. ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى الرواية بوصفها مرآة للحرب، فهي تقدم نموذجًا حيًا لما عاناه المجتمع السوري من عنف، تهجير، فقد، وانهيار القيم الاجتماعية¹.

تتمثل أهمية الرواية في تصوير الحرب ليس فقط كحدث سياسي أو تاريخي، بل كتجربة إنسانية متعددة الأبعاد. فهي تعكس المعاناة اليومية للمدنيين، وصراع الأفراد مع الموت، والتهجير، والفقد، وانعدام الأمن، وتفكك الروابط الاجتماعية. ومن خلال الشخصيات والأحداث، توفر الرواية رؤية دقيقة لكيفية تأثير الحرب على حياة الناس، على حياتهم النفسية والاجتماعية، وعلى ممارساتهم الثقافية والدينية².

كما تتيح الرواية استكشاف الصراعات الداخلية التي تعيشها الشخصيات في مواجهة الحرب، بما في ذلك الشعور بالعجز، والخوف، والحزن، والرغبة في النجاة، والتشبث بالذاكرة والهوية. فالسرد الأدبي في

¹ ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، دار نوفل، مكتبة الفكر الجديد، بيروت، لبنان، دط، 2016، ص 05

² المصدر نفسه، ص 6

هذا السياق يصبح أداة لفهم التجربة الإنسانية المعقدة، ويكشف عن التوتر بين الفرد والجماعة، بين الماضي والحاضر، وبين الواقع المعيش والرمزية الثقافية.

وتبرز الرواية السورية الحديثة في توظيف الرمزية والتقنيات السردية لنقل أثر الحرب بشكل أعمق. فالموت، والفقد، والتهجير، والدمار ليست مجرد أحداث واقعية، بل تتحول في النصوص إلى رموز تحمل دلالات ثقافية واجتماعية وسياسية. وبهذا، يتحول السرد إلى أداة لفهم الدلالات الرمزية للحرب وتأثيرها على الهوية والذاكرة الجماعية، ما يجعل الرواية أكثر من مجرد توثيق، بل تحليلًا ثقافيًا للمجتمع في أزمات الحرب¹.

وتُظهر دراسة رواية الموت عمل شاق، على سبيل المثال، قدرة الأدب على نقل الأثر النفسي والاجتماعي للصراع، من خلال تصوير حياة الشخصيات اليومية في زمن الحرب، وكيفية تعاملهم مع الموت، ومع فقدان الأحبة، ومع الانكسار الاجتماعي. فالسرد لا يقدم الحرب كحقيقة مجردة، بل كخلفية متشابكة للتجربة الإنسانية، ما يتيح للقارئ فهم المآلات النفسية والاجتماعية والسياسية للصراع².

كما تعكس الرواية تأثير التهجير والنزوح القسري على الهوية الفردية والجماعية. فهي "تعرض تجربة فقدان المكان، وارتباط الذاكرة بالمسكن، وكيفية محاولة الشخصيات إعادة إنتاج حياتها بعد الانقطاع القسري. ومن هذا المنطلق، تصبح الرواية أداة لفهم الذاكرة الجماعية السورية في زمن الحرب، وكيف تتعامل المجتمعات مع الانقطاع والفقد³.

¹ الرواية، ص 7

² ينظر، الرواية، ص 30.

³ المصدر نفسه، ص 32.

وتكشف الرواية عن العلاقة بين الحرب والطقوس الثقافية والاجتماعية، حيث يمكن ملاحظة كيفية تغير الممارسات الاجتماعية والاحتفالات والطقوس المرتبطة بالحياة والموت تحت وطأة الحرب. فالأدب، في هذا السياق، لا يكتفي بسرد الأحداث، بل يقدم تحليلًا لأنماط الحياة المتأثرة بالصراع، ويظهر كيف يتم إعادة إنتاج الرموز والمعاني في سياق جديد يتسم بالعنف والخطر المستمر.

كما تسمح الرواية بفهم الجانب السياسي للصراع وتأثيره على المجتمع المدني، إذ تقدم الرواية رؤية للسلطة، والاضطهاد، وانعدام العدالة، وتأثيرها على الفرد والجماعة. ويُظهر السرد كيف يمكن للكاتب توظيف الحدث الواقعي للحرب، وربطه بالرموز الثقافية والاجتماعية، لتقديم نقد أدبي واجتماعي وسياسي في الوقت ذاته¹.

إن الرواية السورية الحديثة، وخاصة رواية الموت عمل شاق، تعمل كمرآة تعكس الحرب السورية بكل أبعادها: الواقعية، النفسية، الاجتماعية، الرمزية والسياسية. فهي تقدم تجربة متكاملة للإنسان في زمن الصراع، وتتيح دراسة تأثير الحرب على المجتمع والفرد، وتوظيف السرد الأدبي كأداة لفهم الديناميات الاجتماعية والثقافية والنفسية المرتبطة بالصراع.

إذن يتضح أن الرواية السورية الحديثة تحولت إلى فضاء سردي يوثق آثار الحرب ويحلل أبعادها النفسية والاجتماعية، متجاوزة مجرد السرد إلى بناء دلالات عميقة للتجربة الإنسانية. كما تكشف عن تأثير الصراع في الهوية والذاكرة والعلاقات الاجتماعية، من خلال تصوير المعاناة اليومية والتهجير والفقد. وتبرز قدرة السرد على تحويل الواقع العنيف إلى رموز تعبّر عن الأزمة الثقافية والوجودية للمجتمع. وبذلك تغدو الرواية أداة لفهم الحرب بوصفها تجربة إنسانية شاملة وليست حدثًا تاريخيًا فقط.

¹ لينظر، الرواية، ص 33.

المطلب الثالث: موقع الرواية ضمن أدب الحرب والذاكرة

تمثل رواية الموت عمل شاق جزءاً مهماً من أدب الحرب والذاكرة في السياق السوري والعربي الحديث، فهي تجمع بين السرد الواقعي للأحداث وتجربة الفرد والجماعة في زمن الصراع، وبين استحضار الذاكرة الجماعية للأجيال السابقة. إن هذا النوع من الأدب لا يكتفي بتسجيل الأحداث التاريخية والسياسية، بل يضيف إليها بعداً إنسانياً وثقافياً، يتيح للقارئ فهم انعكاسات الحرب على الوعي الفردي والجماعي، وعلى البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع¹.

تعمل الرواية على تخليد تجارب الموت والفقد، وإعادة إنتاجها عبر السرد الفني، فتقدم للقراء صورة حية للواقع الذي عاشه الأفراد أثناء الحرب. ومن خلال الشخصيات والأحداث اليومية، توثق الرواية الطقوس، العادات، والممارسات الاجتماعية، وتوضح كيفية تعامل المجتمع مع الموت والانقطاع والفقد الجماعي. ويصبح بذلك السرد أداة لحفظ الذاكرة الثقافية، وربط الماضي بالحاضر، وإعادة إنتاج الهوية الجماعية في مواجهة الانكسارات الناتجة عن الحرب.

كما تسمح الرواية بفهم الديناميات النفسية والاجتماعية للأفراد في ظل الحرب، فهي تقدم تحليلاً لتأثير العنف والتهجير والموت على الشخصيات، وتكشف عن الصراعات الداخلية، والصدمة النفسية، ومحاولات التكيف مع الواقع الجديد. ومن هذا المنطلق، تصبح الرواية مرآة للذاكرة الفردية، إذ تقدم تجربة كل شخصية على حدة، وتوضح كيف يتفاعل الأفراد مع فقدان الأمن، ومع تجارب الموت والفقد².

ويُظهر السرد الأدبي أيضاً الذاكرة الجماعية للمجتمع السوري، فهي تسجل الأحداث الكبرى التي شكلت وعي الجماعة، سواء أكانت سياسية، اجتماعية، أو ثقافية، وتكشف عن استمرارية الرموز

¹ ينظر، سيزا قاسم، بناء الرواية - دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ-، مكتبة الأسرة، مصر، 2004، ص 53.

² ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 55.

والممارسات الثقافية على الرغم من الانقطاع الناتج عن الحرب. فالرواية ليست مجرد سرد شخصي، بل وثيقة أنثروبولوجية تعكس القيم، المعتقدات، والطقوس التي تحافظ على هوية المجتمع، وتربط الأجيال بعضها ببعض¹.

وتعكس الرواية كذلك تأثير الحرب على الثقافة والهوية الجماعية، فهي "تسلط الضوء على الانكسارات التي يعانيها المجتمع، وتوثق التحديات المرتبطة بالحفاظ على الذاكرة الثقافية في ظل الفقر والعنف المستمر. ويُبرز السرد الرمزي في الرواية كيف يمكن تحويل الألم والمعاناة إلى رموز ثقافية تحافظ على استمرارية الهوية الجماعية، وتمنح الأفراد القدرة على التذكر والمواجهة"².

كما تتيح الرواية دراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع أثناء الحرب، إذ يظهر فيها الفرد كعنصر نشط في إعادة إنتاج الذاكرة الجماعية، سواء من خلال الاحتفاظ بالذكريات، أو نقلها إلى الآخرين، أو المشاركة في الطقوس الرمزية والثقافية. وتصبح بذلك تجربة الموت والفقد جزءاً من السرد الجماعي، تعكس تجارب المجتمع كله، وتوضح كيفية تأثير الأحداث الكبرى على تشكيل الوعي الجمعي.

بالإضافة إلى ذلك، تمثل الرواية السورية المعاصرة نموذجاً فنياً لكيفية الجمع بين السرد الواقعي والرمزي، مما يعزز قدرتها على تقديم قراءة متعددة الأبعاد للحرب والذاكرة. فالتفاصيل الواقعية للأحداث اليومية تتحول إلى رموز تحمل دلالات ثقافية واجتماعية، فتتيح للقارئ فهم الصراعات الداخلية والخارجية، والانكسارات الجماعية، والطرق التي تتشكل بها الذاكرة الجماعية والفردية.

إن موقع رواية الموت عمل شاق ضمن أدب الحرب والذاكرة يتمثل في " كونها وثيقة أدبية وأنثروبولوجية، تجمع بين نقل الأحداث الواقعية وتحليلها، وبين استحضار الرموز والذاكرة الثقافية، وتقديم

¹ ينظر: خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 56.

² سيزا قاسم، بناء الرواية - دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ-، ص 56.

تجربة شاملة للإنسان والمجتمع في ظل الحرب. فهي نص يربط بين الفرد والجماعة، الماضي والحاضر، الواقعي والرمزي، ويتيح للباحثين دراسة آثار الحرب على الهوية، الذاكرة، والقيم الثقافية في المجتمع السوري¹.

إن رواية الموت عمل شاق تحتل موقعاً مميزاً ضمن أدب الحرب والذاكرة، حيث تجمع بين التوثيق الواقعي والتحليل الرمزي لتجربة الصراع. كما تسهم في حفظ الذاكرة الجماعية من خلال تخليد معاناة الأفراد وربطها بالسياق الثقافي والاجتماعي. وتكشف عن التفاعل بين الذاكرة الفردية والجماعية في مواجهة الموت والفقد والتهجير. ويبرز السرد فيها كأداة لفهم التحولات النفسية والاجتماعية التي أحدثتها الحرب. وبذلك تغدو الرواية وثيقة أدبية وأنثروبولوجية تعكس عمق التجربة الإنسانية في زمن الأزمات.

يخلص هذا الفصل إلى أن الموت والذاكرة يمثلان محورين أساسيين في فهم التجربة الإنسانية من منظور أنثروبولوجي وسردي. فالموت لا يُنظر إليه كحدث بيولوجي فحسب، بل كظاهرة ثقافية واجتماعية محملة بالدلالات والرموز التي تعكس تصورات المجتمعات حول الحياة والوجود. كما تؤدي الطقوس الجنائزية دوراً مهماً في تنظيم العلاقة بين الأحياء والموتى، وفي إعادة التوازن الاجتماعي بعد الفقد. وفي المقابل، تتشكل الذاكرة عنصراً جوهرياً في حفظ التجارب الفردية والجماعية، حيث تساهم في بناء الهوية واستمرارية الثقافة. وقد بينت الدراسات أن الذاكرة ليست ثابتة، بل تُعاد صياغتها باستمرار وفق السياقات الاجتماعية والتاريخية. كما يتقاطع السرد الأدبي مع الأنثروبولوجيا في تمثيل الموت والذاكرة، إذ يقدم الأدب صورة رمزية وواقعية لهذه التجربة، ويعيد إنتاجها ضمن بناء فني يعكس أبعادها النفسية والاجتماعية.

¹ سيزا قاسم، بناء الرواية - دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ-، ص 64.

يظهر هذا التداخل السرد كوسيلة لفهم الإنسان في علاقته بالموت، ولمقاومة النسيان عبر الحكي والتذكّر. وعليه، فإن دراسة الموت والذاكرة تتيح مقارنة شاملة للبنية الثقافية للمجتمعات، وتُبرز دور الأدب في توثيق التجربة الإنسانية وإعادة تأويلها.

الفصل الثاني

رحلة الجثمان ورحلة

الذاكرة: تحليل سردي

تمهيد:

الموت من أكثر الموضوعات حضورًا في الأدب الإنساني، لما يحمله من أبعاد وجودية وثقافية وسردية تتجاوز حدود الحدث الواقعي إلى فضاءات رمزية عميقة. وفي رواية الموت عمل شاق، يتحول الجثمان من كونه جسدًا هامدًا إلى مركز سردي تتقاطع حوله مسارات الشخصيات، وتتشكل عبره أسئلة الذاكرة والانتماء والهوية في ظل واقع مأزوم. فرحلة نقل الجثمان لا تمثل مجرد انتقال مكاني نحو مثواه الأخير، بل تكشف عن رحلة موازية في أعماق الذاكرة الفردية والجماعية، حيث تتداخل استعادة الماضي مع تشظي الحاضر، ويتحول الطريق إلى فضاء لاستحضار التصدعات الاجتماعية والسياسية والإنسانية. ومن خلال القراءة السردية الأنثروبولوجية، يتجلى الجثمان بوصفه علامة ثقافية تستدعي تأويل الطقوس والممارسات والتمثلات المرتبطة بالموت، كما تكشف الذاكرة عن أدوارها في إعادة تشكيل صورة الراحل وربطها بسياق الجماعة وتاريخها. وعليه، يسعى هذا الفصل إلى تحليل البنية السردية التي تنتظم رحلة الجثمان، واستكشاف دلالاتها الأنثروبولوجية، مع الوقوف عند علاقة الموت بالذاكرة باعتبارها أفقًا تأويليًا يكشف عن أبعاد النص ورهاناته الفكرية والجمالية.

المبحث الأول: رحلة الجثمان

تشكّل رحلة الجثمان في رواية الموت عمل شاق محوّرًا سرديًا أساسيًا تتبني عليه مختلف الأحداث والتوترات التي تحرّك الشخصيات داخل النص. فالجثمان لا يظهر بوصفه عنصرًا ساكنًا أو حضورًا ثانويًا، بل يتحول إلى مركز دلالي تتقاطع حوله الذكريات والصراعات والهواجس الإنسانية. إنّ انتقال الجثمان من مكان إلى آخر لا يُجسّد مجرد فعل مادي مرتبط بإتمام مراسم الدفن، بل يكشف عن مسار شاق يعكس تشظي الواقع واختلال العلاقات الإنسانية تحت وطأة الظروف القاسية. كما تبرز هذه الرحلة بوصفها اختبارًا وجوديًا للشخصيات، إذ تستحضر من خلالها ماضيها المشترك وتعيد مساءلة علاقتها بالموت والانتماء والأسرة. ومن منظور أنثروبولوجي، تحمل هذه الرحلة أبعادًا رمزية ترتبط بمكانة الجسد بعد الموت وما يرافقه من طقوس ودلالات ثقافية. وعليه، يسعى هذا المبحث إلى تتبع مسار الجثمان داخل الرواية، وتحليل أبعاده السردية والرمزية للكشف عن دلالاته العميقة في تشكيل بنية النص وإنتاج معانيه.

المطلب الأول: الطقس الجنائزي كمسار سردي

يحضر الطقس الجنائزي في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة بوصفه أكثر من مجرد ممارسة اجتماعية مرتبطة بالموت، إذ يتحول إلى مسار سردي تتشكل من خلاله حركة النص وتتكشف عبره التحولات النفسية والإنسانية للشخصيات. فالطقس الجنائزي، في بنيته التقليدية، يقوم على جملة من الإجراءات والرموز التي تؤسس لعبور الميت من عالم الأحياء إلى عالم الغياب، غير أن الرواية تعيد صياغة هذا الطقس داخل سياق استثنائي يتسم بالفوضى والتشظي، مما يجعله يفقد انتظامه المألوف ويتحول إلى رحلة قاسية تكشف هشاشة النظام الاجتماعي والإنساني. ومن ثم، يغدو الجثمان محوّرًا سرديًا يفرض حضوره على الشخصيات، ويدفعها إلى خوض تجربة شاقة تتجاوز حدود تنفيذ وصية الأب إلى

مسألة الوجود ذاته¹. حيث يقول الكاتب: "..... في الأسابيع الأخيرة تعايش مع أبيه، وبدأ يخاف من موته حقيقة..... فكر بلبل لأول مرة في ورطة الجثة بعد الموت لم تخطر له جدية أبيه في تكرار انتزاع وعده الأكيد بتنفيذ وصيته....."² هنا بدأ بلبل يواجه حقيقة الموت وعبء الوفاء بتنفيذ الوصية. إذ "تحول الجسد الحميم، جثة الأب إلى عبء ثقیل وتتحول الوصايا البسيطة إلى أشغال شاقة تختبر فيها النفس البشرية آخر نبض"³

ينطلق السرد من لحظة الوفاة باعتبارها الحدث المؤسس الذي يخلخل التوازن السردى ويفتح المجال لتحول الحكاية من السكون إلى الحركة. فالموت هنا لا يمثل خاتمة طبيعية، بل بداية رحلة سردية جديدة، تبدأ بمحاولة الأبناء الوفاء لوصية والدهم ودفنه في قريته الأصلية. هذه الوصية تحمل في جوهرها بعداً طقسياً عميقاً، إذ تعكس الرغبة في العودة إلى الأصل والالتحام بالمكان الأول بوصفه فضاءً للسكنية النهائية. غير أن تحقيق هذا الطقس يصطدم بعوائق الواقع المأزوم، فتتحول الرحلة إلى اختبار مستمر للقدرة على إتمام فعل الدفن، ويصبح الجثمان معلّقاً بين الحياة والموت، وبين المكان الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة والمكان الذي يفترض أن يحتضنه⁴.

تكتسب الرحلة الجنائزية بعدها السردى من خلال ما تفرضه من حركة دائمة وانتقال مكاني الرحلة تكشف شكلاً جديداً من أشكال الانهيار الذي يطبع الواقع، سواء تمثل ذلك في الحواجز الأمنية أو في الخوف أو في انكسار العلاقات الإنسانية. وبهذا، يغدو الطقس الجنائزي وسيلة للكشف عن واقع اجتماعي وسياسي مختل، لا يستطيع حتى أن يمنح الموتى حقهم الطبيعي في الدفن الكريم. إن الرواية

¹ ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، دار العين للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016، ص42.

² المرجع نفسه ص42، 43.

³ صورة الموت في رواية "الموت عمل شاق" لخالد خليفة. قراءة بانورامية دلالية، فضيلة مادي، بختة هواشيرة، مجلة معارف، ص679.

⁴ ينظر، جبرار جينيت، خطاب الحكاية: بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 18.

تقدم الموت هنا بوصفه تجربة جماعية مأزومة، حيث لم يعد حدثاً فردياً محاطاً بالسكينة والرغبة، بل صار امتداداً للفوضى التي تبتلع الأحياء والأموات معاً¹.

ومن الناحية الأنثروبولوجية، يرتبط الطقس الجنائزي عادةً بإعادة إنتاج النظام الرمزي للجماعة، إذ يمنحها فرصة لتأكيد قيمها المشتركة حول الموت والخلود والذاكرة. غير أن هذا المعنى يتعرض للتفكك داخل الرواية، حيث تتعطل الوظيفة الرمزية للطقس نتيجة اختلال العالم المحيط. فلا حضور لمشهد العزاء التقليدي، ولا اكتمال لمراسم الوداع، ولا طمأنينة جماعية ترافق الانتقال الأخير. وبدلاً من ذلك، يحضر القلق بوصفه الإطار النفسي المسيطر، ويتحول الجثمان إلى عبء ثقيل يضع الشخصيات في مواجهة مستمرة مع الخوف والعجز. وهكذا، يصبح الطقس الجنائزي صورة مكثفة لانهايار المعنى داخل مجتمع فقد قدرته على تنظيم علاقته بالموت².

إن الجثمان ذاته يتحول داخل هذا السياق إلى علامة سردية ذات كثافة رمزية عالية. فهو ليس مجرد جسد ميت، بل كيان يستدعي الذاكرة ويعيد تشكيل العلاقات بين الشخصيات. فوجوده داخل السيارة طوال الرحلة يجعل حضوره أشبه بالشاهد الصامت الذي يكشف تصدعات الأسرة ويوقظ مكبوتاتها. كل فرد من الأبناء يجد نفسه مدفوعاً إلى مراجعة علاقته بالأب وبالماضي المشترك، وكأن الرحلة الجنائزية ليست إلا طقس عبور نفسي يفرض عليهم مواجهة ذواتهم. وبهذا المعنى، يصبح الجثمان وسيطاً سردياً يربط بين الحاضر والماضي، ويعيد فتح الجراح القديمة التي ظنت الشخصيات أنها تجاوزتها³.

كما يتجلى الطقس الجنائزي كمسار سردي من خلال التوتر بين القداسة والانتهاك. فالجثمان، الذي يُفترض أن يُعامل بوقار واحترام، يتعرض خلال الرحلة لسلسلة من الإهانات غير المقصودة الناتجة

¹ لينظر، ترفيتان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت، دار توبقال، المغرب، 1990، ص 45.

² لينظر، رولان بارت، لذة النص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 1992، ص 63.

³ لينظر، ترفيتان تودوروف، الشعرية، ص 52.

عن الظروف القاهرة، كالتأخير والتفتيش والتحلل التدريجي للجسد. هذه التفاصيل لا تؤدي وظيفة وصفية فحسب، بل تكشف عن انهيار البنية الرمزية التي تحمي الموت من الابتذال. إن الرواية، عبر هذا انتهاك المتكرر لقدسية الجثمان، تفضح واقعاً صار فيه الموت نفسه فاقداً لهيبته، وصارت فيه الطقوس عاجزة عن أداء دورها في ترميم الفقد ومنح المعنى للغياب¹، إذ يشير الراوي لانتهاك قدسية الجثة وتعرضها للاهانة بسبب التأجيل فيقول: "...في الظلام لم يستطيعوا ملاحظة ما طرأ على الجثة من تبدلات...خافوا من اكتشاف أنها تشوهت..."²

ويلاحظ كذلك أن المسار الجنائزي في الرواية يتخذ بنية دائرية قائمة على التأجيل المستمر، فكلما اقتربت الشخصيات من تحقيق هدفها اعترضتها عقبة جديدة تعيدها إلى نقطة التوتر الأولى. هذا البناء السردى يعكس عبثية الواقع ويجسد الإحساس بالاستحالة الذي يلزم الشخصيات. فالدفن، الذي يفترض أن يكون خاتمة الرحلة، يتحول إلى أفق مؤجل باستمرار، مما يجعل الجثمان معلقاً في زمن بيني لا هو زمن الأحياء ولا زمن الأموات. وهذا التعليق الزمني يمنح الرواية بعدها الوجودي، إذ يكشف عن عالم فقد القدرة على إنهاء الأشياء ومنحها اكتمالها الرمزي³

إن الطقس الجنائزي في الرواية ليس مجرد خلفية للأحداث، بل هو البنية السردية التي تنتظم حولها مختلف عناصر النص. فمن خلاله تتشكل الحبكة، وتكشف الشخصيات، ويتجسد الواقع في أكثر صوره مأساوية. كما أنه يمثل أداة أنثروبولوجية لتحليل اختلال العلاقة بين الإنسان والموت داخل مجتمع ممزق. لقد نجح خالد خليفة في تحويل رحلة دفن بسيطة إلى ملحمة سردية تكشف عمق الأزمة الإنسانية، وتبرز كيف يمكن لطقس جنائزي معطل أن يختصر مأساة وطن بأكمله، حيث يصبح الموت عملاً شاقاً لا لأن النهاية عسيرة، بل لأن الوصول إليها بات مستحيلًا في عالم فقد نظامه ومعناه.

¹ خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص47

² الرواية، ص47

³ جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص23.

المطلب الثاني: الجثمان رمز للهوية والانتماء

يحتل الجثمان في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة موقعاً رمزياً يتجاوز دلالاته المباشرة بوصفه جسداً فارق الحياة، ليغدو علامة سردية كثيفة تستدعي أسئلة الهوية والانتماء، وتكشف عن العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان والذاكرة. فالجثمان في بنيته الرمزية ليس بقايا جسد فحسب، بل هو أثر وجودي يحمل تاريخ صاحبه وتجربته وعلاقاته وانتماءاته، ولهذا فإن التعامل معه داخل النص لا يتم بوصفه موضوعاً جنائزياً فقط، بل باعتباره تمثيلاً لمعنى الانتماء ذاته. ومن هنا تتحول رحلة نقل الجثمان إلى رحلة بحث عن الجذور الأولى، ومحاولة لإعادة وصل ما انقطع بين الذات ومكانها الأصلي، في واقع تتفكك فيه الحدود النفسية والاجتماعية والوطنية.¹

إن وصية الأب بأن يُدفن في قريته الأصلية تحمل دلالة رمزية عميقة تتصل بمفهوم العودة إلى الأصل. فالمكان الذي يُدفن فيه الإنسان لا يمثل مجرد رقعة جغرافية، بل فضاءً رمزياً يختزن الذاكرة الأولى ويؤكد الانتماء العميق إلى الجماعة والتاريخ. إن إصرار الأب على هذه العودة، حتى بعد الموت، يعكس رغبة في استعادة هوية مهددة بالتشظي، وكأن الدفن في القرية هو الفعل الأخير الذي يمنح الوجود اكتماله الرمزي. فالإنسان، وفق التصورات الأنثروبولوجية، يسعى دوماً إلى الانتماء لمكان يؤطر حياته وموته معاً، ويضمن استمراره الرمزي داخل ذاكرة الجماعة. ومن هذا المنطلق، يصبح الجثمان حاملاً لحق الراحل في الانتماء الأخير، حتى وإن عجز عن الدفاع عنه بنفسه، ويوضح الراوي اهتمام الأبناء بالجثة وسط الحرب من أجل دفنها في القرية الأصلية ويقول: "... استيقظ فزعا على يد تهزه بقوة، حسين على واقف قرب رأسه يخبره برمي الممرضين برمي جثة أبيهما إلى الشارع دخل بلبل إلى المشرحة للتوقيع تسلم جثة أبيه التي تعاون حسين مع زهير في إعادتها إلى ميكروباص " ²

¹ ينظر، تيزفيتان تودوروف، الشعرية، ص55
² خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص50.

غير أن تحقيق هذه العودة يصطدم بواقع ممزق يجعل الوصول إلى المكان الأصلي رحلة عسيرة، وهو ما يكشف عن أزمة أعمق تتعلق بتشظي الهوية نفسها. فتعثر نقل الجثمان عبر الحواجز والمسافات المقطوعة لا يعكس فقط صعوبة الانتقال الفيزيائي، بل يجسد انقطاعاً رمزياً بين الإنسان وجذوره. إن الوطن، الذي يُفترض أن يحتضن أبناءه أحياءً وأمواتاً، يتحول إلى فضاء معادٍ يعيق حتى فعل العودة الأخيرة. وبهذا المعنى، يصبح الجثمان صورة مكثفة للذات السورية التي فقدت يقينها بالمكان، وصارت معلقة بين انتماءات متصدعة لا تستطيع أن تمنحها الاستقرار¹.

كما أن الجثمان في الرواية يؤدي وظيفة استحضر الذاكرة الجمعية، إذ يتحول إلى وسيط يعيد إحياء العلاقات المتوترة بين أفراد الأسرة. فوجود الأب الميت داخل السيارة طوال الرحلة يفرض حضوره الرمزي بوصفه مرجعاً عائلياً وذاكرة مشتركة تجمع الأبناء رغم تباعدهم النفسي والوجداني. وكل شخصية تجد نفسها مضطرة إلى استعادة علاقتها بالأب، بما تحمله من محبة مكبوتة أو خيبة أو شعور بالخذلان. وهكذا يصبح الجثمان حاملاً لذاكرة الانتماء العائلي، ومثيراً للأسئلة التي طالما تم تأجيلها حول معنى القرابة والالتزام والوفاء. إن حضوره الصامت أكثر فاعلية من حضوره حياً، لأنه يفرض على الجميع مواجهة حقيقة الروابط التي تجمعهم، بعيداً عن الأقنعة اليومية².

ويتجلى الجثمان أيضاً بوصفه رمزاً لهوية مهددة بالتحلل، وهو ما يظهر من خلال التغيرات التي تطرأ عليه أثناء الرحلة. فالتحلل الجسدي الذي يصيبه لا يُقرأ فقط بوصفه نتيجة طبيعية للموت وتأخر الدفن، بل يحمل دلالة رمزية تحيل إلى تفكك الهوية الوطنية والاجتماعية. إن الجسد الذي كان يوماً حياً ومنتمياً إلى مكان وعائلة، يصير عرضة للتآكل التدريجي، وكأن الرواية ترصد من خلاله انهيار الكيان

¹ ينظر، عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 44.

² الرواية، ص 52.

الجمعي نفسه. فكما يفقد الجسد تماسكه العضوي، تفقد الجماعة انسجامها الرمزي، ويتحول الانتماء إلى حالة هشّة قابلة للتآكل تحت ضغط الخراب¹.

ومن منظور أنثروبولوجي، يرتبط الجثمان عادةً بمكانة مقدسة داخل الثقافة الإنسانية، إذ يُنظر إليه باعتباره حاملاً لهوية الشخص حتى بعد وفاته. ولهذا فإن العناية بالجسد ودفنه وفق الطقوس المعروفة تمثل شكلاً من أشكال الاعتراف بإنسانية الراحل واستمرار انتمائه إلى جماعته. غير أن الرواية تكشف عن انهيار هذا المعنى بفعل اختلال الواقع؛ فالجثمان لا يُعامل دائماً بما يليق بحرمته، بل يتحول أحياناً إلى عبء ثقيل يهدد سلامة الأحياء أنفسهم. هذا التحول يكشف عن أزمة قيم عميقة، "حيث لم يعد المجتمع قادراً على صيانة رموزه الأساسية، وفي مقدمتها احترام الموت بوصفه آخر مظاهر الانتماء الإنساني"².

وتبرز علاقة الجثمان بالهوية كذلك من خلال التوتر بين الخاص والعام. فهو في ظاهره جثمان الأب، لكنه في عمقه يتجاوز فرديته ليغدو تمثيلاً رمزياً لجثمان الوطن المثقل بالجراح. فكل عائق يعترض طريق دفنه يعكس عطباً في الجسد الجمعي، وكل محاولة لإيصاله إلى مثواه الأخير تبدو محاولة يائسة لإنقاذ ما تبقى من معنى الانتماء. وبهذا تصبح الرحلة الجنائزية استعارة كبرى لرحلة الوطن نفسه، حيث يتعذر الوصول إلى الاستقرار النهائي بسبب تشظي المكان والذاكرة والهوية.

إن خالد خليفة ينجح عبر هذه الرمزية في جعل الجثمان مركزاً دلاليًا تتقاطع فيه مستويات متعددة من التأويل. فهو في الآن نفسه جسد الأب، وذاكرة الأسرة، وصورة الوطن، وسؤال الهوية المعلقة بين الحضور والغياب. ومن خلال هذا التعدد الرمزي، يمنح النص للجثمان وظيفة تتجاوز البعد الحكائي

¹ ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 53.

² عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 46.

لتصبح أداة فكرية وجمالية لاستكشاف أزمة الانتماء في زمن الانهيار. إن الجثمان لا يرمز إلى نهاية فردية فحسب، بل يكشف عن مأساة جماعية يعيشها مجتمع فقد بوصلته الرمزية وصار يبحث، حتى في موته، عن معنى يرمم انكساره¹.

إن الجثمان في الرواية يتحول إلى رمز مركزي للهوية والانتماء، لأنه يجسد الصراع بين الرغبة في العودة إلى الأصل واستحالة تحقيق هذه العودة في واقع ممزق. ومن خلال رحلته الشاقة، يطرح النص سؤالاً جوهرياً حول معنى أن ينتمي الإنسان إلى مكان لم يعد قادراً على احتضانه، وحول الكيفية التي يتحول بها الموت نفسه إلى فعل مقاومة رمزية ضد النسيان والاقتلاع. هكذا يغدو الجثمان شاهداً على أزمة الهوية، ومرآة لانكسار الانتماء، وعلامة على بحث الإنسان الدائم عن موضع أخير يستريح فيه جسده وتطمئن إليه ذاكرته.

المطلب الثالث: الجثمان الجنائزي الرحلة بين الجغرافي والميتافيزيقي

تتخذ الرحلة الجنائزية في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة بُعداً مزدوجاً يتجاوز حدود الانتقال المكاني المباشر، إذ تتشابه فيها أبعاد جغرافية محسوسة مع أبعاد ميتافيزيقية عميقة، تجعل من حركة الجثمان عبر الأمكنة فعلاً رمزياً يختزل أسئلة الوجود والمصير والانتماء. فالرحلة، في ظاهرها، تبدو مجرد انتقال من نقطة إلى أخرى بغرض تنفيذ وصية الدفن، غير أن النص يحول هذا المسار الواقعي إلى تجربة تأملية تكشف عن التوتر القائم بين المحدود الوجودي واللامحدود الرمزي، وبين المكان بوصفه فضاءً مادياً، والموت بوصفه عبوراً نحو أفق يتجاوز الإدراك الحسي. ومن خلال هذا التداخل،

¹ لينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 51.

يغدو الطريق مسرحاً لصراع بين عالمين: عالم الأرض المثلث بالعوائق والانقسامات، وعالم الغياب الذي يلوح كأفق نهائي للسكينة والخلال¹.

يتجلى البعد الجغرافي للرحلة من خلال الحضور المكثف للمكان داخل البنية السردية. فالطرق، والحواجر، والمدن، والمسافات المقطوعة ليست مجرد خلفيات وصفية، بل عناصر فاعلة تؤثر في سير الأحداث وتعيد تشكيل وعي الشخصيات. إن الجغرافيا هنا ليست حياداً مكانياً، بل فضاءً متوتراً مشحوناً بالعنف والانقسام، يعكس اختلال النظام العام وتحول المكان من فضاء للانتماء إلى فضاء للارتباب والتهديد. فكل حاجز أمني يعترض الطريق يرمز إلى انقطاع في جسد الوطن، وكل التقاف اضطراري في المسار يكشف عن فقدان الاستقامة الرمزية التي يفترض أن تحكم رحلة الدفن. وهكذا تصبح الجغرافيا صورة مجسدة للتشظي الوجودي الذي تعيشه الشخصيات، حيث لم يعد الطريق يوصل إلى الغاية بقدر ما يكشف استحالة الوصول إليها. إذ يتحول المكان إلى فضاء مشحون بالعنف والترهيب ويقول الراوي: ".... حين كان زهير في السجن كانت لميا تزور دمشق تصر على قضاء وقت طويل مع بلبل تستمع.... إلى شكواه.... بجمل قليلة تختصر مضايقات رجال المخابرات وتحرشهم بها غي وظيفتها ومحيطها الاجتماعي الذي لا يقل بؤساً عن عالم زوجة بلبل...."².

ولا يقتصر حضور الجغرافيا على كونها مجالاً للحركة، بل تتخذ بعداً نفسياً عميقاً، إذ تستحضر الأمكنة ذاكرة الشخصيات وتوقظ علاقتها المتصدعة بالماضي. فالمرور عبر المدن والقرى لا يوقظ فقط صوراً من الحياة السابقة، بل يعيد مساءلة معنى الانتماء ذاته. فالمكان الذي كان يوماً فضاءً للدفع والاستقرار يتحول إلى علامة على الفقد، وكأن الرحلة لا تقطع المسافات فحسب، بل تعبر طبقات الذاكرة

¹ ينظر، عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 47.

² خالد خليفة، لموت عمل شاق، ص 57.

الشخصية والجماعية. ومن هنا يصبح التنقل الجغرافي مرآةً لتنقل داخلي في الوعي، حيث تتقاطع استعادة الذكريات مع الإحساس المرير بانهيار الزمن الجميل.¹

غير أن هذه الرحلة، على كثافتها الجغرافية، تتفتح على أفق ميتافيزيقي يجعلها أكثر من مجرد عبور في المكان. فالجثمان، بحضوره الصامت، يفرض سؤال المصير النهائي، ويحول الطريق إلى معبر رمزي بين الحياة والموت. إن وجود الأب الميت وسط الأحياء يخلق حالة وسطى تتجاوز الثنائيات التقليدية؛ فهو حاضر بجسده وغائب بروحه، قريب بماديته وبعيد بدلالته الوجودية. وهذه الازدواجية تمنح الرحلة طابعاً تأملياً يجعلها أقرب إلى طقس عبور بين عالمين، حيث يتعذر الفصل بين الواقعي والرمزي، وبين الحسي والغائب.²

إن البعد الميتافيزيقي يتجلى كذلك في فكرة التعليق الزمني التي تحكم حركة الجثمان. فهو لا يصل إلى مستقره النهائي بسرعة، بل يبقى معلقاً في زمن بيني لا هو زمن الحياة ولا زمن الموت المكتمل. هذا التعليق يخلق حالة وجودية قلقية، إذ يبدو وكأن الجثمان عالق بين عالمين، ينتظر اكتمال طقس العبور الذي يمنحه السكينة النهائية. وفي التصورات الأنثروبولوجية، يمثل هذا الوضع مرحلة انتقالية تسبق الاندماج الكامل في عالم الموتى، غير أن الرواية تجعل هذه المرحلة ممتدة على نحو مؤلم، بما يعكس اختلال النظام الرمزي الذي ينظم العلاقة بين الأحياء والأموات.³

كما تتبدى الميتافيزيقا في الصمت الذي يلف الجثمان ويمنحه سلطة رمزية على الأحياء. فهذا الصمت ليس فراغاً، بل حضور كثيف يفرض على الشخصيات مواجهة أسئلتها المؤجلة حول الموت والمعنى والجدوى. إن الأب، رغم موته، يظل فاعلاً في مسار الرحلة أكثر من الأحياء أنفسهم، وكأن

¹ تيزفيتان تودوروف، الشعرية، ص 59.

² ينظر، ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر، دمشق، 1987، ص 86.

³ ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 59.

الجسد الهامد يتحول إلى صوت خفي يذكّرهم بهشاشتهم ويفرض عليهم تأمل مصائرهم الخاصة. وهكذا تصبح الرحلة الجنائزية رحلة تأمل وجودي، لا تقتصر على نقل الميت، بل تشمل إعادة مساءلة معنى الحياة ذاتها¹

ويتجلى التداخل بين الجغرافي والميتافيزيقي في العلاقة بين الطريق والمصير. فالطريق في الرواية ليس مجرد مسلك مادي، بل استعارة للوجود الإنساني بما يحمله من تعثر وانتظار وقلق. وكلما طال الطريق وتعمّد، بدا كأنه يحاكي مسار الإنسان في بحثه الدائم عن معنى نهائي يبدد عبثية الوجود. والجثمان، الذي يشغل مركز هذا الطريق، يتحول إلى علامة على المصير المشترك الذي ينتظر الجميع. وبهذا المعنى، تصبح الرحلة صورة مصغرة للرحلة البشرية الكبرى، حيث يتحرك الإنسان بين بدايته ونهايته وسط عراقيل لا يملك السيطرة عليها².

كما أن استحالة الفصل بين الجغرافي والميتافيزيقي تكشف عن رؤية الرواية للعالم بوصفه فضاءً مأزومًا تتداخل فيه المادة والرمز. فالعوائق المادية التي تؤخر الدفن ليست مجرد عقبات خارجية، بل تجليات حسية لاختلال أعماق يطال النظام الوجودي نفسه. وكأن الرواية تقول إن الخراب الذي يصيب المكان لا بد أن يمتد إلى المعنى، وإن تشظي الجغرافيا يفضي حتمًا إلى تشظي العلاقة بالموت والخلود والسكينة³.

ومن خلال هذا البناء المركب، ينجح خالد خليفة في تحويل الرحلة الجنائزية إلى تجربة فلسفية وأنثروبولوجية تكشف عن عمق المأساة الإنسانية. فهي ليست فقط رحلة جسد يبحث عن قبر، بل رحلة معنى يبحث

¹ ينظر، بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009، ص 25.

² ينظر عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 49.

³ المرجع نفسه، ص 50.

عن اكتماله في عالم فقد انسجامه. فالجغرافيا الممزقة تمنع الوصول، والميتافيزيقا المؤجلة تؤجل الخلاص، ليبقى الجثمان معلقاً بين الأرض والغياب، شاهداً على مأساة وجودية يتعذر حسمها¹.

إن الرحلة الجنائزية في الرواية تمثل نقطة التقاء بين الجغرافي والميتافيزيقي، حيث يتجسد المكان بوصفه قدرًا ماديًا، ويتحول الموت إلى سؤال يتجاوز حدود المادة. ومن خلال هذا التداخل، يكشف النص عن رؤية مأساوية للوجود الإنساني، قوامها أن الطريق إلى النهاية ليس دائمًا طريقًا نحو السكينة، بل قد يكون امتدادًا للتيه نفسه. وهكذا يغدو الجثمان، في رحلته الشاقة، رمزًا للإنسان الباحث عن مستقر أخير في عالم تتعذر فيه الطمأنينة، وتبقى فيه النهاية نفسها مؤجلة على نحو لا نهائي.

المبحث الثاني: رحلة الذاكرة

تعدّ الذاكرة في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة عنصرًا سرديًا محوريًا يتداخل مع رحلة الجثمان ليمنح النص عمقه الإنساني والأنثروبولوجي. فإذا كانت رحلة الجثمان تمثل انتقالًا ماديًا عبر الأمكنة، فإن رحلة الذاكرة تشكل عبورًا داخليًا عبر الزمن، تستعيد من خلاله الشخصيات ماضيها المثقل بالخييات والانكسارات. فالموت لا يحضر هنا بوصفه نهاية بيولوجية فحسب، بل بوصفه محفزًا لاستدعاء الذاكرة وإعادة مساءلة العلاقات القديمة التي جمعت أفراد الأسرة. ومن خلال هذا الاسترجاع، تتكشف تصدعات الذات والأسرة والوطن، حيث تصبح الذكريات فضاءً لمواجهة ما تم كتمانها أو نسيانها. كما أن الذاكرة في الرواية لا تستعيد الماضي بصفائه، بل تستحضره مشوشًا ومثقلًا بالألم، بما يعكس أثر التحولات القاسية في تشكيل الوعي الفردي والجماعي. ومن ثمّ، تغدو رحلة الذاكرة مسارًا تأويليًا يكشف خفايا الشخصيات ويعيد بناء علاقتها بالموت والانتماء والهوية. وعليه، يسعى هذا المبحث إلى تحليل

¹ ينظر، تزفيتان تودوروف، الشعرية، ص 61.

تجليات الذاكرة داخل الرواية، واستكشاف أبعادها السردية والرمزية بوصفها رحلة موازية لرحلة الجثمان، تكشف عن عمق المأساة الإنسانية التي يصوغها النص.

المطلب الأول: السرد بوصفه إستعادة

يمثل السرد في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة أكثر من مجرد تقنية فنية لتنظيم الأحداث، إذ يتحول إلى فعل استعادة يعيد بناء الماضي داخل الحاضر، ويمنح الشخصيات فرصة مواجهة ذواتها عبر استحضار ما تراكم في الذاكرة من وقائع وتجارب ومشاعر مؤجلة. فالرواية، وإن بدت في ظاهرها قائمة على رحلة جسدية لنقل الجثمان، فإنها في عمقها رحلة سردية موازية نحو استعادة الأزمنة المنكسرة، حيث يتشابك الحاضر بالماضي، ويتحول التنقل المكاني إلى محفز لاستدعاء الذكريات الكامنة. ومن هذا المنظور، يصبح السرد ذاته فعلاً مقاوماً للنسيان، وآلية رمزية لترميم ما تصدع في الوعي الفردي والجماعي¹.

إن الاستعادة السردية في النص لا تأتي بوصفها استرجاعاً خطياً ومنظماً للماضي، بل تظهر عبر شذرات متقطعة تتسلل إلى وعي الشخصيات أثناء الرحلة. فكل محطة من محطات الطريق توقظ صورة منسية أو تجربة مكبوتة، وكأن المكان يستفز الذاكرة ويجبرها على الانكشاف. هذه التقنية تجعل السرد أشبه بتدفق نفسي غير خاضع للترتيب الزمني التقليدي، حيث يتجاوز الماضي والحاضر داخل اللحظة الواحدة. إن هذا التداخل الزمني لا يهدف فقط إلى تعقيد البناء الحكائي، بل يكشف عن طبيعة الذاكرة ذاتها بوصفها بنية متشظية تستعيد ما مضى وفق منطق شعوري لا يخضع للتسلسل المنطقي للأحداث.

ومن خلال هذا التشظي، ينجح السرد في تحويل الاستعادة إلى أداة للكشف النفسي. فالشخصيات لا تستحضر ماضيها من باب الحنين المجرد، بل لأن الحاضر المأزوم يدفعها إلى مراجعة ما عاشته

¹ينظر، عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص53.

بحثاً عن تفسير لانكساراتها الراهنة. إن كل ذكرى تستعاد تحمل معها قدرًا من الألم أو الندم أو الشعور بالفقد، وكأن الماضي نفسه لم يعد ملاذًا آمنًا بل صار مساحة لمساءلة الذات. وهكذا يصبح السرد شكلاً من أشكال المحاكمة الداخلية، حيث تواجه الشخصيات هشاشتها الخاصة عبر إعادة تأويل ما عاشته سابقًا. إذ أن الشخصيات تحاول كبت الماضي أو نسيانه ، لكن الذاكرة تفرض نفسها ونجد هذا حين قال الراوي : " استطاعت فرض إيقاع النسيان على الجميع إلا عبد اللطيف الذي لم ينس ، بقيت رائحتها البعيدة تنيره ومشيتها تربكه ونظراتها القوية تكاد في لحظات تدمره وتفضح ضعفه " ¹

ويكتسب السرد بوصفه استعادة بعدًا أنثروبولوجيًا واضحًا، إذ تتجاوز الذكريات بعدها الفردي لتصبح جزءًا من الذاكرة الجمعية التي تعكس تحولات المجتمع ذاته. فاسترجاع الشخصيات لماضيها لا ينفصل عن استعادة صورة الوطن قبل انهياره، وعن مقارنة ضمنية بين زمنين: زمن كانت فيه العلاقات أكثر تماسكًا، وزمن تهيم عليه القطيعة والتشظي. إن الرواية لا تستعيد الماضي لتبجيله أو تمجيده، بل لتكشف حجم الفقد الذي أصاب الجماعة. ومن هنا يغدو السرد أداة لحفظ الأثر الإنساني في مواجهة الخراب، ومحاولة لتوثيق ما تآكل من ذاكرة المكان والناس . إن استدعاء الماضي يدفع الشخصية إلى مواجهة هشاشتها ومراجعة ألمها وفقدائها ، فالعودة إلى المنزل وحياء الذكرى الخامسة لرحيل زوجته ما هو إلا اجترار للماضي كمحاولة لمواجهة الألم حيث يقول الراوي : " كان من المفترض لتلك العودة إلى منزل العائلة أن تخفف من ألم الأب الأرملة وألم الابن المنفصل عن زوجته بالذكرى السنوية الخامسة لرحيل زوجته . " ²

كما أن فعل الاستعادة داخل الرواية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحضور الجثمان نفسه. فوجود الأب الميت داخل السيارة لا يمثل فقط عنصرًا حكائيًا محررًا للأحداث، بل يشكل محفزًا رمزيًا لاستدعاء

¹ خالد خليفة ، الموت عمل شاق، ص63.

² المصدر نفسه ص 63 .

الماضي. فالجثمان، بصمته الثقيل، يفرض على الأبناء العودة إلى علاقتهم السابقة به، واستحضار مواقفهم المختلفة تجاهه. وبذلك يتحول إلى وسيط سردي تستعاد عبره شبكة كاملة من الذكريات العائلية. كشف ما تم إخفاؤه طويلاً¹.

وتظهر الاستعادة كذلك من خلال تعدد وجهات النظر السردية، حيث تتشكل الذاكرة وفق منظور كل شخصية وخبرتها الخاصة. فلا وجود لذاكرة واحدة مكتملة، بل تتعدد الروايات حول الحدث الواحد، بما يكشف نسبة الحقيقة الإنسانية وتشظي التجربة المشتركة. إن هذا التعدد يمنح النص عمقاً تأويلياً، لأنه يجعل السرد مساحة لتجاوز الذات لا لهيمنة صوت واحد. فالذاكرة هنا ليست سجلاً ثابتاً، بل عملية مستمرة من إعادة البناء والتأويل، تتغير بتغير موقع الذات من الحدث ومن الزمن².

ومن الناحية الجمالية، يضيف هذا البناء الاستعادي على النص إيقاعاً خاصاً يقوم على التوتر بين التقدم والتراجع. فالحكاية تتحرك إلى الأمام عبر الرحلة الجغرافية، لكنها في الوقت نفسه تعود باستمرار إلى الوراء عبر الاسترجاعات. هذا التوازي بين المسارين يمنح الرواية طابعاً دائرياً، حيث لا يكون الوصول إلى النهاية مجرد بلوغ مكاني، بل اكتمالاً لمسار استعادة طويل. وكأن السرد يوحي بأن الوصول الحقيقي لا يتحقق إلا عبر مواجهة الماضي واستيعابه³.

كما أن السرد بوصفه استعادة يؤدي وظيفة أخلاقية، إذ يمنح الشخصيات فرصة ضمنية للمصالحة مع ذواتها. فالاسترجاع لا يقتصر على كشف الألم، بل يفتح إمكان الفهم وإعادة التأويل. ومن خلال استحضار التفاصيل المنسية، تعيد الشخصيات النظر في أحكامها السابقة، وتكتشف أبعاداً جديدة

¹ ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق ص 56.

² المصدر نفسه، ص 66.

³ المصدر نفسه، ص 67.

لعلاقاتها بالآخرين. وهذه العملية تجعل السرد فعلاً تحويلياً، لا مجرد تسجيل للماضي، لأنه يغير وعي الشخصيات بذاتها وبالعالم¹.

ويتجلى البعد الوجودي للاستعادة في كونها مقاومة للنسيان والمحو. ففي عالم تتآكل فيه المعاني تحت ضغط الخراب، يصبح السرد وسيلة للحفاظ على الحد الأدنى من الاستمرارية الإنسانية. فالذاكرة المستعادة تمنح الشخصيات إحساساً بأنها لم تُمحَ بالكامل، وأن ما عاشته لا يزال قابلاً لأن يُروى ويُفهم. ومن هنا يتخذ السرد طابعاً وجودياً عميقاً، إذ يصبح إثباتاً للكينونة عبر الحكيم².

إن السرد في رواية الموت عمل شاق يتجاوز وظيفته الحكائية ليغدو فعل استعادة مركباً، يعيد تشكيل الماضي داخل الحاضر ويكشف عبره عن هشاشة الذاكرة الإنسانية وقوتها في آن واحد. فهو من جهة يفضح التشظي والانكسار، ومن جهة أخرى يمنح الشخصيات إمكانية المقاومة الرمزية عبر استعادة ما ظن أنه ضائع. وهكذا ينجح خالد خليفة في جعل السرد نفسه رحلة داخل الذاكرة، موازية لرحلة الجثمان، حيث يصبح الحكيم وسيلة للعبور من الفقد إلى الوعي، ومن الصمت إلى المعنى.

المطلب الثاني: الذاكرة الفردية للشخصيات الأب- الأبناء

تشكل الذاكرة الفردية في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة أحد المرتكزات الأساسية التي يبنى عليها المعنى السردية والأنثروبولوجي للنص، إذ تتحول رحلة نقل الجثمان إلى لحظة استثنائية تستفز الوعي الداخلي للشخصيات وتدفعها إلى استعادة علاقتها الخاصة بالماضي. فالذاكرة هنا لا تُستحضر بوصفها استرجاعاً محايداً للأحداث، بل باعتبارها فضاءً نفسياً متوتراً تتكشف داخله الجراح القديمة والتناقضات الدفينة. ومن خلال هذه الاستعادة الفردية، تتشكل صورة الأب كما يراها كل ابن،

¹¹ ينظر، عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 60.

² خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 68.

وتتكشف طبيعة الروابط التي جمعتهم به، بما يفتح المجال لتحليل عميق لمفهوم السلطة الأبوية والانتماء العائلي والقطيعة الوجدانية¹.

يحضر الأب داخل الرواية في هيئة الجثمان، لكنه يظل فاعلاً على مستوى الذاكرة أكثر مما كان عليه في حضوره الجسدي الحي. فموته لا يؤدي إلى غيابه الكامل، بل يعيد حضوره في الوعي النفسي للأبناء عبر سيل من الذكريات المتناقضة. إن الجثمان، وهو يرقد صامتاً في السيارة، يتحول إلى مرآة تعكس لكل شخصية صورتها الخاصة عن الأب، بحيث لا يظهر ككيان موحد، بل بوصفه مجموعة من التمثيلات المختلفة والمتعارضة أحياناً. وهذا التعدد يكشف أن الذاكرة الفردية لا تحفظ الشخص كما هو، بل تعيد تشكيله وفق التجربة الخاصة لكل ذات².

تتجلى ذاكرة الأب بوصفها ذاكرة مثقلة بالخيبة والاعتراب. فالأب نفسه، قبل موته، كان يعيش حالة انكسار داخلي عميق، ناتجة عن شعوره بانفصال العالم من حوله عن الصورة التي كان يؤمن بها للحياة والأسرة والوطن. لقد عاش تحولات الواقع بوصفها انهياراً تدريجياً لمعنى الوجود، الأمر الذي جعله ينكفئ على ذاته ويتشبث بفكرة العودة إلى القرية بوصفها الملاذ الأخير الممكن. هذه الرغبة في العودة لا تعبر فقط عن حنين مكاني، بل تكشف عن ذاكرة تبحث عن اكتمالها الرمزي في الأصل الأول. فالأب يريد أن يستعيد عبر الدفن انتماءه الأول الذي عجز عن حمايته في حياته. إذ نجد في المقطع الذي يقول: ".....ندم الأب لتركه أرض الشهداء.....في تلك الليلة حاول الصمت، لكنه خاف أن يموت وتكون

¹ خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 69.

² المصدر نفسه، ص 70.

تلك آخر كلمات.....تسعه العودة إلى سيرتها...¹ يبين هذا المقطع الاغتراب الفردي والتشبث بالذكريات كوسيلة للعودة إلى الأصل والتحرر من خيبات الواقع الصادم الذي تحول حوله إلى جحيم.

أما الأبناء، فتتوزع ذاكرتهم حول الأب بين الحب المكبوت والخذلان والصمت الطويل. فكل واحد منهم يحمل ذاكرة خاصة تتشكل من تفاصيل العلاقة التي جمعت به، وهذه الذاكرة لا تنفصل عن مسار حياته الشخصي. فهناك من يستعيد الأب بوصفه رمزاً للسلطة والانضباط الصارم، وهناك من يراه مصدرًا لخيبات لم تُحسم، بينما يتذكره آخر بوصفه ظلًا باهتًا لرجل لم يستطع أن يحمي أسرته من التشظي. إن هذا التعدد في التمثلات يبرز هشاشة الصورة الأبوية داخل الوعي الفردي، ويكشف أن الأبوة نفسها ليست حقيقة واحدة، بل تجربة معقدة تتشكل وفق منظور كل ابن².

وتظهر الذاكرة الفردية للأبناء من خلال انبثاق الذكريات أثناء الرحلة، وكأن الطريق بما يفرضه من ببطء وتأمل يتيح للوعي أن ينفث على ما كان مطمورًا. فكل توقف قسري أو لحظة صمت داخل السيارة تصبح مناسبة لاستعادة مشهد قديم أو إحساس منسي. وهذه الاسترجاعات لا تأتي بترتيب منطقي، بل تتدفق وفق منطق شعوري متشظٍ، يعكس طبيعة الذاكرة الإنسانية بوصفها بناءً غير مستقر. ومن خلال هذا التدفق، "تتكشف الشخصيات أمام ذاتها، لا عبر أفعالها الراهنة فقط، بل عبر ما يطفو من أعماقها من صور وتجارب"³.

كما تكشف الذاكرة الفردية عن أزمة التواصل داخل الأسرة. فاستعادة الماضي تُظهر أن كثيرًا من العلاقات بين الأب وأبنائه كانت قائمة على الصمت أو سوء الفهم أو العجز عن التعبير الصريح. لقد عاش كل منهم عالمه الداخلي بمعزل نسبي عن الآخر، حتى بدت الأسرة، رغم اجتماعها الظاهري،

¹ الرواية، ص 69.

² الرواية، ص 71.

³ حميد لحداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 29.

مجموعة ذوات منفصلة تعجز عن بناء حوار حقيقي. ويأتي الموت ليجبر هذه الذوات على مواجهة هذا الانفصال، عبر رحلة تجعلهم قريبين جسدياً لأول مرة، لكن تحت وطأة الغياب النهائي للأب. ومن هنا تتخذ الذاكرة بعداً مأساوياً، لأنها تكشف ما لم يُقَلْ إلا بعد فوات الأوان. فذكريات الأبناء في السيارة لا تأتي مرتبة، بل تقفز من فكرة إلى أخرى فجأة بسبب الصمت فالشخصية كانت تتذكر قصة حب قديمة وفجأة تقفز ذاكرتها إلى أحداث الحرب والدماء.... فكرت في تلك الليلة التي اجتمعت فيها مع عبد اللطيف، تقاسمت معه العناية بشاب أصيب برصاصة.....¹ تظهر الذاكرة المتشظية للأبناء في صمت السيارة وتؤكد أزمة التواصل بينهم فبدلاً من الحوار يسترجع كل فرد أسرارهم القديمة بمعزل عن الآخرين مثل تذكر....."الورود التي كانت السر الذي جعل نيفين تفكر بأن هذا الرجل قد تغيّر كثيراً..."² هذا يؤكد أنهم ذوات منفصلة داخل حيز مكاني واحد.

ومن الناحية الأنثروبولوجية، تكشف هذه الذاكرة الفردية عن تفكك البنية التقليدية للعائلة بوصفها فضاءً للتماسك الرمزي. فالأب، الذي يفترض أن يكون مركزاً جامعاً للهوية الأسرية، يبدو في ذاكرة الأبناء شخصية منكسرة فقدت قدرتها على الاحتواء. وهذا الانكسار لا يرتبط فقط بطبيعته الفردية، بل يعكس انهيار السياق الاجتماعي الذي لم يعد يسمح باستمرار النموذج الأبوي التقليدي. وهكذا تصبح الذاكرة الفردية سجلاً لتحولات أعمق مست بنية الأسرة ذاتها، وجعلت العلاقة بين الأجيال قائمة على القطيعة أكثر من الامتداد.³

ويكشف حضور الجثمان عن وظيفة رمزية خاصة للذاكرة؛ إذ إنه يمنح الأبناء فرصة أخيرة لإعادة تأويل علاقتهم بالأب. ففي حضوره الميت، يتحررون من سلطته المباشرة، ويصبح بإمكانهم النظر إليه

¹ الرواية، ص 71.

² الرواية، ص 71.

³ ينظر، الرواية، ص 74.

من مسافة نقدية وتأملية. وهذه المسافة تتيح لهم اكتشاف جوانب لم يكونوا قادرين على رؤيتها في حياته. إن الموت هنا لا يغلق العلاقة، بل يعيد فتحها على مستوى أعمق، حيث يتحول التذكر إلى فعل مراجعة ومصالحة محتملة مع الذات¹.

كما أن الذاكرة الفردية لا تنحصر في استعادة صورة الأب فقط، بل تشمل استعادة الذات نفسها. فكل ابن، وهو يسترجع علاقته بالأب، يعيد في الوقت ذاته قراءة مسار حياته وخياراته وإخفاقاته. وهكذا "تتحول الذاكرة إلى مرآة مزدوجة تعكس صورة الآخر وصورة الذات معًا. ومن خلال هذه العملية، يصبح التذكر شكلاً من أشكال الوعي الوجودي الذي يكشف هشاشة الكينونة الإنسانية أمام الزمن والفقد"².

ويتجلى البعد الجمالي لهذا البناء في قدرة خالد خليفة على جعل الذكريات تتداخل مع الحاضر السردى دون انفصال حاد، بحيث يشعر القارئ أن الماضي ليس زمنًا منقضيًا، بل طبقة حية تسكن اللحظة الراهنة. وهذه التقنية تجعل الذاكرة جزءًا من الحركة السردية لا مجرد تعليق خارجي عليها، فتمنح النص كثافة شعورية وتأملية عالية³.

إن الذاكرة الفردية للشخصيات في رواية الموت عمل شاق تمثل فضاءً مركزيًا لفهم تعقيد العلاقات بين الأب والأبناء، وما يكتنفها من صمت وخذلان وحنين خفي. فهي تكشف أن الموت لا ينهي الروابط الإنسانية، بل يعيد تشكيلها داخل الوعي بوصفها أثرًا مستمرًا. ومن خلال هذا الاشتغال العميق على الذاكرة، ينجح النص في تقديم صورة إنسانية مؤثرة لعلاقة الآباء بالأبناء في زمن الانكسار، حيث يصبح التذكر محاولة أخيرة لترميم ما تهشم، وإضفاء معنى متأخر على ما لم يُفهم في حينه.

¹بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 27.

²المرجع نفسه، ص 29.

³ينظر، حميد لحداني، بنية النص السردى، ص 30.

المطلب الثالث: الذاكرة الجماعية الحرب - الخراب

تتجلى الذاكرة الجماعية في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة بوصفها البنية العميقة التي توطر حركة الشخصيات وتمنح الرحلة الجنائزية أبعادها الأنثروبولوجية والوجودية. فإذا كانت الذاكرة الفردية تستعيد العلاقات الشخصية وما يرتبط بها من انكسارات، فإن الذاكرة الجماعية تتجاوز حدود الذات لتكشف أثر الحرب والخراب في تشكيل الوعي الجمعي وإعادة صياغة العلاقة بالمكان والهوية والزمن. فالرواية لا تستحضر الحرب بوصفها حدثاً تاريخياً عابراً، بل تقدمها كجرح مستمر يسكن الذاكرة العامة، ويعيد إنتاج نفسه في تفاصيل الحياة اليومية، حتى يصبح الخراب جزءاً من التجربة الوجودية المشتركة¹.

إن الحرب في النص لا تُقدّم من خلال وصف مباشر للمعارك أو الصراعات المسلحة بقدر ما تظهر عبر آثارها المتغلغلة في الأمكنة والوجوه والعلاقات. فالمكان الذي تعبّره الشخصيات في رحلتها يبدو مشبعاً بذاكرة الخراب؛ الطرق المتصدعة، الحواجز المنتشرة، نظرات الخوف والارتياح، كلها علامات تحيل إلى واقع مثقل بالعنف. إن هذه التفاصيل لا تؤدي وظيفة وصفية محضة، بل تشكل استدعاءً ضمناً لذاكرة جماعية ترسخت فيها صورة الوطن بوصفه فضاءً منكسراً. وهكذا يصبح المكان حاملاً للذاكرة، لا مجرد إطار محايد للأحداث.

وتنبثق الذاكرة الجماعية من خلال العلاقة المتوترة بين الماضي والحاضر. فكل لحظة من الرحلة تستدعي مقارنة صامتة بين ما كان عليه الوطن في الذاكرة الجمعية، وما صار إليه تحت وطأة الحرب. لقد تحول الفضاء الذي كان يوماً مجاًلاً للحياة الطبيعية إلى مسرح دائم للقلق والريبة. وهذه المقارنة لا

¹ ينظر، حميد لحداني، بنية النص السردي، ص 33.

تُصرَّح بها دائماً، لكنها تتسلل عبر الإشارات السردية الدقيقة، لتكشف أن الخراب ليس مجرد واقع مادي، بل انكسار في صورة الجماعة عن ذاتها. فالذاكرة هنا تحفظ ما فُقد، وتحوّل الفقد إلى وعي دائم بالمأساة¹.

ومن منظور أنثروبولوجي، تمثل الذاكرة الجماعية الأداة التي تحفظ للجماعة استمراريته الرمزية، إذ تسمح لها بإعادة سرد ماضيها المشترك وصياغة هويتها عبر الزمن. غير أن الرواية تكشف عن اهتزاز هذه الوظيفة تحت ضغط الحرب، حيث لم تعد الجماعة قادرة على إنتاج سردية موحدة عن ذاتها. فالحرب لا تدمر الأمكنة فحسب، بل تُفقد الذاكرة نفسها، وتحوّلها إلى شظايا متناثرة من التجارب المتناقضة. وهكذا تظهر الشخصيات وكأنها تنتمي إلى وطن واحد في الظاهر، لكنها تحمل داخلها صوراً متباعدة عنه، بفعل اختلاف مواقعها من المأساة².

ويتجسد أثر هذه الذاكرة الجماعية في الطريقة التي تتعامل بها الشخصيات مع الجثمان. فالصعوبة التي تواجهها الأسرة في دفن الأب لا تُقرأ فقط كعائق فردي، بل كعلامة على اختلال النظام الجماعي الذي كان يمنح الموت معناه الطقسي والاجتماعي. لقد صار الدفن نفسه فعلاً استثنائياً يحتاج إلى مجهود خارق، وكأن الجماعة فقدت قدرتها على تنظيم علاقتها بالموت. وهذا الانهيار في الطقس الجنائزي يكشف عن عمق الخراب الذي أصاب الذاكرة الجمعية، حيث لم تعد الطقوس قادرة على أداء وظيفتها في ترميم الفقد وضمان الاستمرارية الرمزية³.

كما تتجلى الذاكرة الجماعية في حضور الخوف بوصفه إحساساً مشتركاً يتجاوز التجربة الفردية. فالشخصيات، رغم اختلاف طبائعها ومساراتها، تتقاسم إدراكاً ضمنياً بأن العالم من حولها لم يعد قابلاً للثقة. هذا الإحساس لا يحتاج إلى تفسير مباشر، لأنه صار جزءاً من الوعي الجمعي الذي تشكل عبر

¹ينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 76.

²ينظر، المصدر نفسه، ص 77.

³ينظر، بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 32.

سنوات الحرب. إن الخوف هنا ليس انفعالاً نفسياً طارئاً، بل ذاكرة متجسدة في السلوك اليومي، تحدد نظرة الأفراد إلى المكان والآخرين والمستقبل¹. حيث صرح الكاتب في غير موضع عن الخوف الذي عاشه أبطالها طيلة الرحلة ويقول "...تبادل الثلاثة الخوف . كل تقديراتهم ذهبت ادراج الرياح. تأخروا أكثر مما يجب قلة السيارات العابرة . الفراغ والبراري البعيدة ن وكل شيء عتى الطريق يزيد من خوفهم..² عرفوا الخوف من عدم حفاظهم على نظارة الجثة، فالوقت كان العدو الأكبر لهم ولجثمان والدهم.

ويكشف السرد كذلك عن العلاقة بين الخراب والنسيان. فالحرب، إلى جانب قدرتها على التدمير المادي، تخلق نزوعاً جماعياً إلى النسيان بوصفه آلية دفاعية ضد الألم. غير أن الرواية تقاوم هذا النسيان عبر استعادة تفاصيل الحياة المهددة بالمحو. فكل ذكرى صغيرة، وكل إشارة إلى زمن سابق، تمثل فعل مقاومة رمزية ضد ابتلاع الخراب للذاكرة. ومن هنا يتحول السرد إلى أداة لحفظ الأثر الجماعي، واستعادة ما تحاول الحرب محوه من صورة الوطن والناس³.

ويتبدى الخراب أيضاً في تفكك الروابط الاجتماعية التي كانت تشكل نسيج الجماعة. فالحرب لا تدمر الحجر فقط، بل تزعزع الثقة بين الأفراد وتحول العلاقات إلى مساحات من الحذر والانفصال. وهذه القطيعة الاجتماعية تظهر في الرواية من خلال البرودة التي تطبع بعض التفاعلات الإنسانية، ومن خلال الشعور العميق بالعزلة الذي يحيط بالشخصيات حتى وهي مجتمعة. إن هذا التفكك جزء من الذاكرة الجماعية للخراب، لأنه يعيد تشكيل الوعي الاجتماعي وفق منطق النجاة الفردية بدل التضامن الجمعي⁴.

¹ ينظر، صورة الموت في رواية الموت عمل شاق ص 692.

² الرواية، ص 18.

³ ينظر، حميد لحمداني، المرجع السابق، ص 35.

⁴ ينظر، المرجع نفسه، ص 37.

ومن الناحية الرمزية، يصبح الجثمان نفسه تمثيلاً مكثفاً لذاكرة الحرب. فهو ليس فقط جسد الأب، بل صورة للوطن المثقل بجراحه، المحمول بصعوبة عبر طرق ممزقة بحثاً عن مثنوى أخير. وكل تأخير في دفنه يوحي بتأجيل المصالحة الجماعية مع الماضي، وكأن الخراب لم يسمح بعد بإتمام الطقس الرمزي الذي يعيد للنظام الاجتماعي توازنه. وبهذا المعنى، تغدو الرحلة الجنائزية استعارة كبرى لمسار الجماعة نفسها في بحثها المضني عن نهاية للتيه.

كما أن الرواية تمنح الذاكرة الجماعية بُعداً وجودياً يتجاوز الحدث التاريخي المباشر. فهي لا تسأل الحرب بوصفها واقعة سياسية فقط، بل بوصفها اختباراً لمعنى الإنسان حين يفقد عالمه المألوف. إن الخراب هنا يكشف هشاشة الأسس التي يقوم عليها الوجود الجماعي، ويدفع الشخصيات إلى إعادة التفكير في معنى الوطن والانتماء والاستمرارية. ومن خلال هذا التأمل، تصبح الذاكرة الجماعية فضاءً للسؤال الفلسفي بقدر ما هي سجل للتجربة التاريخية¹.

إن الذاكرة الجماعية في رواية الموت عمل شاق تمثل قلب النص الأنثروبولوجي والرمزي، لأنها تكشف كيف تتحول الحرب من حدث خارجي إلى بنية داخلية تسكن الوعي وتعيد تشكيل العلاقة بالذات والمكان والزمن. لقد نجح خالد خليفة في تصوير الخراب لا بوصفه مشهداً عابراً، بل كحالة وجودية ممتدة تحفظها الذاكرة وتعيد إنتاجها في تفاصيل الحياة اليومية. وهكذا يغدو السرد فعل مقاومة ضد المحو، وتصبح الذاكرة الجماعية شاهداً على قدرة الإنسان على الاحتفاظ بآثره الإنساني حتى في أقصى لحظات الانكسار.

¹ لينظر، خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 81.

المطلب الرابع: السرد كآلية مقاومة للنسيان

يشكل السرد في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة أداة مركزية لمقاومة النسيان، إذ لا يقتصر دوره على تنظيم الأحداث أو بناء الحبكة الروائية، بل يتجاوز ذلك ليصبح فعلاً رمزياً يحفظ الذاكرة من المحو، ويعيد تثبيت المعنى في مواجهة التلاشي الذي يفرضه الموت والحرب والخراب. فالنسيان في الرواية لا يُطرح بوصفه فقداناً طبيعياً للذاكرة، بل يظهر كخطر وجودي يهدد الأفراد والجماعات على حد سواء، لأن ضياع الذاكرة يعني ضياع الهوية وانقطاع الصلة بالماضي الذي يمنح الحاضر شرعيته الرمزية. ومن هذا المنطلق، يتحول السرد إلى ممارسة مقاومة تستعيد ما هو مهدد بالغياب، وتمنحه حضوراً جديداً داخل النص¹.

إن الرواية منذ بدايتها تؤسس لهذا المعنى من خلال جعل رحلة الجثمان محوراً سردياً تتولد عنه سلسلة من الاسترجاعات والتأملات. فالجثمان ليس مجرد موضوع للحكي، بل محفز لاستعادة ذاكرة تكاد تتآكل تحت ضغط الواقع. وكلما تحركت الشخصيات في الطريق، انفتحت أمامها طبقات من الماضي كانت مهددة بالنسيان أو مطموسة بفعل الألم. وبهذا المعنى، يصبح السرد فعلاً استذكاريًا يعيد إحياء التجربة الإنسانية في مواجهة محاولات محوها. إن الحكي هنا لا يوثق الحدث فقط، بل ينقذه من السقوط في العدم².

ويظهر السرد بوصفه مقاومة للنسيان من خلال قدرته على إعادة تشكيل صورة الأب بعد موته. فالجثمان، وإن بدا صامتاً وهامداً، يستعيد عبر الحكي حضوره الإنساني بكل تناقضاته وضعفه وقوته. إن الشخص لا يستمر بعد الموت من خلال الجسد، بل من خلال ما يُروى عنه، ولذلك يصبح السرد

¹ ينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ص 46.

² ينظر، بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 35.

شكلاً من أشكال الإحياء الرمزي. فكل ذكرى يستحضرها الأبناء، وكل تفصيل يُعاد سرده، يمنح الأب وجوداً جديداً داخل الوعي. وهكذا يتحدى النص منطق الفناء البيولوجي، ويؤكد أن الإنسان يظل حاضراً ما دام أثره محفوظاً في الحكاية¹.

كما أن السرد يقاوم النسيان الجماعي الذي تفرضه الحرب. فالحروب لا تقتل الأجساد فقط، بل تسعى إلى محو الذكريات المشتركة، وتفكيك السرديات التي تحفظ للجماعة تماسكها الرمزي. وفي هذا السياق، تأتي الرواية بوصفها فعلاً مضاداً لهذا المحو، إذ تستعيد تفاصيل الحياة اليومية التي تهددها الفوضى بالاختفاء. إن استحضار الطرق والبيوت والعلاقات الإنسانية الصغيرة هو شكل من أشكال الدفاع عن الذاكرة الجمعية ضد الخراب. فكل ما يُروى يُنتشل من الصمت، وكل ما يُكتب يُمنح فرصة للاستمرار².

ومن منظور أنثروبولوجي، يُعدّ السرد أحد أهم الوسائط التي تحفظ بها الجماعات ذاكرتها عبر الزمن. فالحكي لا ينقل الوقائع فقط، بل يعيد تأويلها ويمنحها مكانة داخل النظام الرمزي للجماعة. وفي الرواية، يتجسد هذا الدور بوضوح، إذ تتحول الحكاية إلى مساحة لحفظ التجربة السورية من التبسيط أو الاختزال. إن النص لا يقدم الحرب بوصفها حدثاً سياسياً مجرداً، بل يرويها من خلال أثرها العميق في تفاصيل الحياة والموت والعلاقات. وهذا المنظور السردي يحفظ للذاكرة الجماعية تعقيداً إنسانياً، ويمنع اختزالها في خطاب تاريخي جامد³.

ويبرز السرد كآلية مقاومة للنسيان أيضاً من خلال بنيته الزمنية المتكسرة. فالتنقل المستمر بين الحاضر والماضي يعكس رفض النص للخطية الزمنية التي تدفع نحو النسيان التدريجي. فالماضي لا

¹ ينظر، حميد لحداني، بنية النص السردي، ص 39.

² ينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 49.

³ خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 86.

يُترك خلف الشخصيات، بل يعود باستمرار ليطالب بحضوره. وهذه العودة ليست مجرد حيلة فنية، بل تعبير عن إصرار الذاكرة على مقاومة المحو. وكأن الرواية تؤكد أن ما حدث لا يمكن تجاوزه ببساطة، لأن التجربة الإنسانية تظل كامنة في الوعي مهما حاول الزمن طمسها. لأن الماضي والأصل لا يمكن الفكك منهما حيث تظل الذاكرة والمنشأ يلاحقان الأب حتى بعد محاولته بناء حياة بديلة في دمشق...". فكلما ذكره أحد من أهل البلدة يعيد أصله إلى العنابية، ليس سهلاً الفكك من الهوية.....¹

كما أن تعدد الأصوات داخل النص يمنح السرد قدرة أكبر على مقاومة النسيان. فكل شخصية تسهم في إعادة بناء الذاكرة من زوايتها الخاصة، وبذلك يتشكل نسيج سردي غني يحفظ تعددية التجربة الإنسانية. إن النسيان كثيراً ما ينشأ من هيمنة رواية واحدة تُقصي الأصوات الأخرى، بينما يتيح التعدد السردى مقاومة هذا الاختزال عبر حفظ الاختلاف والتباين. ومن هنا تصبح الرواية فضاءً ديمقراطياً للذاكرة، يحتضن التناقض بدل أن يلغيه.²

ويتجلى هذا البعد المقاوم أيضاً في اللغة ذاتها. فخالد خليفة يوظف لغة مشحونة بكثافة شعرية ورمزية تجعل الذاكرة قابلة للتجسد داخل الكلمات. إن اللغة هنا ليست وعاءً محايداً للمضمون، بل وسيلة لإعادة خلق العالم المهدد بالزوال. ومن خلال هذا التشكيل اللغوي، يتحول السرد إلى عملية إنقاذ جمالي لما هو معرض للاندثار، حيث تُمنح التفاصيل الهشة وجوداً ثابتاً داخل النص.³

كما أن السرد يواجه النسيان عبر فضح آلياته النفسية والاجتماعية. فالشخصيات كثيراً ما تحاول الهروب من ماضيها أو دفنه تحت صمت طويل، لكن الرحلة تجبرها على مواجهته. وهكذا يكشف النص

¹ خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 87.

² ينظر، حميد لحمداني، بنية النص السردى، ص 42.

³ ينظر، المرجع نفسه، ص 44.

أن النسيان ليس دائماً خلاصاً، بل قد يكون شكلاً من أشكال الإنكار الذي يفاقم الجرح بدل شفاؤه. ومن خلال الحكي، تُتاح إمكانية الاعتراف بما حدث، وهو شرط أساسي لأي مصالحة مع الذات أو التاريخ.

ويتخذ السرد بعداً وجودياً حين يصبح الوسيلة الوحيدة الممكنة لمقاومة العدم. ففي عالم يتآكل تحت ضغط الحرب والموت، يبدو الحكي فعلاً بسيطاً لكنه جوهري، لأنه يثبت أن الإنسان قادر على تحويل الألم إلى معنى. إن الرواية لا تنفي الفقد، لكنها تمنحه صيغة قابلة للفهم والتأمل. وهذا التحويل هو جوهر المقاومة السردية، لأن ما يُفهم يمكن احتماله، وما يُروى يمكن أن يستمر¹.

ومن خلال هذه الوظيفة، يغدو السرد شكلاً من أشكال العدالة الرمزية. فهو يمنح من كادوا يُنسبون فرصة الظهور من جديد، ويعيد الاعتبار لتجارب كان يمكن أن تُمحي بصمت. إن الأب، والأبناء، والوطن الجريح، جميعهم يجدون في الحكاية مساحة للبقاء، ولو على مستوى الذاكرة النصية. وهكذا يصبح السرد شهادة ضد المحو، وإصراراً على أن الألم الإنساني لا يجوز أن يختفي دون أثر².

إن السرد في رواية الموت عمل شاق يتجاوز وظيفته الفنية ليغدو آلية عميقة لمقاومة النسيان، تحفظ للذاكرة الفردية والجماعية حقها في الاستمرار. لقد نجح خالد خليفة في جعل الحكي فعلاً وجودياً يقف في وجه الفناء الرمزي، ويؤكد أن ما يُروى لا يموت بالكامل. وهكذا تتحول الرواية إلى مساحة لمقاومة الصمت، وإلى شهادة أدبية على قدرة السرد على حماية الإنسان من السقوط في النسيان، مهما اشتد الخراب من حوله.

¹ خالد خليفة، الموت عمل شاق ، ص 90.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 91.

المبحث الثالث: البنية السردية والرمزية في الرواية

تشكل البنية السردية والرمزية في رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة عنصرًا أساسيًا في بناء المعنى وكشف الأبعاد الأنثروبولوجية للنص، إذ لا تقتصر وظيفتها على احتضان الأحداث وتحديد فضائها الزماني والمكاني، بل تتجاوز ذلك لتصبح بنية دلالية فاعلة تسهم في تشكيل التجربة الإنسانية للشخصيات. فالفضاءات التي تتحرك فيها الشخصيات، بما تحمله من تشظٍ وخراب وانغلاق، تعكس التحولات العميقة التي أصابت الواقع، وتمنح السرد بعدًا رمزيًا يتجاوز المستوى الحكائي المباشر. كما أن الرموز الموظفة داخل الرواية، وفي مقدمتها الجثمان والطريق والحواجر، تتحول إلى علامات ثقافية تكشف عن أزمات الهوية والانتماء والذاكرة. ومن خلال هذا التداخل بين البيئة المادية والدلالة الرمزية، ينجح النص في تحويل العالم الروائي إلى مرآة للواقع الإنساني المأزوم. وعليه، يسعى هذا المبحث إلى تحليل مكونات البيئة السردية وتجلياتها الرمزية، للكشف عن دورها في بناء رؤية الرواية وتكثيف أبعادها الفكرية والجمالية.

المطلب الأول: تقنيات السرد ، تعدد الأصوات، الإسترجاع

تقوم رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة على بناء سردي متماسك تتداخل فيه تقنيات فنية متعددة، أسهمت في تكثيف أبعادها الرمزية والأنثروبولوجية، وفي مقدمة هذه التقنيات يبرز تعدد الأصوات والاسترجاع بوصفهما ركيزتين أساسيتين في تشكيل العالم الروائي. فالرواية لا تُبنى وفق سرد خطي بسيط يقوم على راوٍ أحادي يقدم الأحداث من منظور ثابت، بل تتفتح على تعدد وجهات النظر، بما يتيح كشف التوترات النفسية والإنسانية للشخصيات، ويمنح النص ثراءً تأويليًا خاصًا. كما أن الاسترجاع لا يأتي بوصفه مجرد وسيلة لاستعادة الماضي، بل يتحول إلى أداة بنائية عميقة تسمح بربط الحاضر بالماضي، وكشف التشظي الذي يطبع الوعي الفردي والجماعي. ومن خلال هذا الاشتغال

التقني، ينجح خالد خليفة في بناء نص متوتر زمنياً وصوتياً، يعكس مأساة الشخصيات وعالمها المنكسر¹.

يعدّ تعدد الأصوات من أبرز التقنيات السردية التي اعتمدها النص في بناء معناه. فالرواية لا تفرض صوتاً مهيماً يحتكر الحقيقة، بل تمنح الشخصيات المختلفة مساحة للتعبير عن رؤاها الخاصة، بحيث تتشكل الحكاية عبر تفاعل هذه الأصوات وتقاطعاتها. وهذا التعدد لا يقتصر على مستوى الحوار الخارجي، بل يتجسد أساساً عبر التدفق الداخلي للوعي، حيث تُكشف أعماق الشخصيات وهواجسها ومواقفها المتباينة تجاه الأب والموت والوطن والذاكرة. إن كل شخصية تقدم جزءاً من الحقيقة، لكن لا أحد يمتلكها كاملة، وهو ما يمنح النص طابعاً إنسانياً واقعياً يعكس نسبية التجربة البشرية².

وتتجلى أهمية هذه التقنية في الطريقة التي تُبنى بها صورة الأب. فالأب، رغم موته المبكر في الرواية، لا يُقدّم عبر وصف مباشر من راوٍ خارجي، بل يتشكل حضوره من خلال ذكريات الأبناء وتمثلاتهم المختلفة له. فكل ابن يستعيده بصورة خاصة، وفق ما عاشه معه من مواقف وتجارب وانفعالات. وبهذا التعدد، يصبح الأب شخصية مركبة لا يمكن اختزالها في صورة واحدة نهائية. إن حضوره السردي ينبثق من اختلاف الرؤى حوله، بما يكشف عن تعقيد الشخصية الإنسانية واستحالة القبض عليها في تعريف أحادي إن تعدد الأصوات يعكس مأساة الشخصيات ونجد هذا في غير موضع من الرواية فشخصية الأب لا تظهر في صورة واحدة بل تتشكل من خلال ذكريات الأبناء المتباينة،

كما يمنح تعدد الأصوات للرواية بُعداً ديمقراطياً في تمثيل التجربة الإنسانية. فبدل أن يخضع القارئ لرؤية أحادية تفرض تأويلاً جاهزاً، يجد نفسه أمام فسيفساء من الأصوات المتجاورة والمتعارضة أحياناً، ما

¹ ينظر، حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص 46.

² ينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 51.

يجعله شريكاً في بناء المعنى. وهذه التقنية تكسر مركزية الراوي التقليدي، وتتيح انفتاح النص على قراءات متعددة، لأن الحقيقة الروائية لا تُعطى جاهزة، بل تتشكل من التفاعل بين الذات المختلفة¹.

ومن الناحية الأنثروبولوجية، يعكس تعدد الأصوات تفكك الوعي الجمعي داخل المجتمع المأزوم الذي تصوره الرواية. فكل شخصية تبدو وكأنها تعيش داخل عالمها الخاص، وتحمل تصوراً مختلفاً عن الوطن والأسرة والموت. وهذا التباين يكشف عن انكسار السردية الجماعية الجامعة، وتحول الواقع إلى شظايا متفرقة من الخبرات الفردية. إن تعدد الأصوات هنا ليس مجرد تقنية فنية، بل تعبير عن واقع فقد وحدته الرمزية، وصار عاجزاً عن إنتاج معنى مشترك².

إلى جانب تعدد الأصوات، يشكل الاسترجاع تقنية مركزية في بناء الرواية. فالزمن السردى لا يتحرك في خط مستقيم من البداية إلى النهاية، بل يتشظى باستمرار عبر العودة إلى الماضي. وكل لحظة من الحاضر تستدعي ذكرى قديمة، وكأن الماضي يرفض أن يبقى منتهياً، ويصر على الحضور داخل اللحظة الراهنة. إن هذه التقنية تمنح النص كثافة زمنية تجعل القارئ يعيش الحاضر والماضي في آن واحد.

ولا يأتي الاسترجاع بوصفه استعادة توثيقية للأحداث السابقة، بل يتخذ شكل انبثاقات شعورية تنطلق من وعي الشخصيات. فالذكريات لا تظهر مرتبة وفق تسلسل منطقي، بل تتدفق وفق منطق نفسي يرتبط بالمشيرات الآنية. قد يوقظ مشهد الطريق صورة قديمة من الطفولة، أو تستحضر رائحة الجثمان

¹ ينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 96.

² ينظر، المرجع نفسه، ص 54.

لحظة من علاقة الأب بابنه. وهذا التشظي الزمني يعكس طبيعة الذاكرة الإنسانية بوصفها بنية متكسرة، لا تحفظ الماضي على نحو خطي بل تستحضره عبر ومضات متفرقة¹.

وتؤدي هذه التقنية وظيفة كشفية عميقة، إذ تتيح للقارئ فهم الشخصيات من الداخل. فما يبدو غامضاً أو ملتبساً في سلوكها الحاضر يجد تفسيره في الماضي المستعاد. إن الاسترجاع هنا ليس زينة شكلية، بل وسيلة لتفسير الحاضر عبر العودة إلى جذوره النفسية والتاريخية. ومن خلاله تنكشف الصدمات القديمة، والخيبات المتراكمة، والقرارات التي صنعت مصائر الشخصيات².

كما يسهم الاسترجاع في بناء التوتر الدرامي داخل النص. فكلما تقدمت الرحلة نحو نهايتها، ازداد انفتاح الماضي على الحاضر، وكأن الاقتراب من لحظة الدفن يحرر الذاكرة من قيودها ويدفعها إلى الانكشاف الكامل. "وهذه الحركة المتوازية بين التقدم الجغرافي والعودة الزمنية تمنح الرواية إيقاعاً خاصاً، حيث يتحقق الوصول المكاني بالتزامن مع اكتمال الاستعادة النفسية"³.

ومن خلال الجمع بين تعدد الأصوات والاسترجاع، يحقق النص تداخلاً معقداً بين الأزمنة والذوات. فكل صوت يحمل ذاكرته الخاصة، وكل استرجاع يعكس منظوراً فردياً للماضي. وهذا التفاعل يجعل الزمن ذاته متعددًا، لأن الماضي لا يُستعاد بوصفه حقيقة ثابتة، بل يتشكل وفق رؤية من يستحضره. وهكذا تتحول الذاكرة إلى فضاء للصراع التأويلي، حيث تتجاور النسخ المختلفة من الحدث الواحد دون أن تُلغى إحداها الأخرى⁴.

¹ ينظر، حميد لحداني، بنية النص السردي، ص 53.

² المرجع نفسه، ص 54.

³ المرجع نفسه، ص 59.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 60.

ويُضفي هذا البناء السردى بعداً فلسفياً على الرواية، إذ يكشف أن الحقيقة الإنسانية ليست معطى نهائياً، بل بناء متغير يتشكل عبر الذاكرة والتأويل. فالماضي نفسه ليس ثابتاً، بل يُعاد إنتاجه كلما استُحضر من زاوية جديدة. وهذه الرؤية تجعل النص تأملاً عميقاً في طبيعة الزمن والوعي والهوية¹.

ومن الناحية الجمالية، يمنح هذا التشظي السردى الرواية إيقاعاً داخلياً متوتراً ينسجم مع طبيعة موضوعها. فالموت، والذاكرة، والخراب لا يمكن التعبير عنها بسرد خطي هادئ، بل تحتاج إلى بنية منكسرة تعكس انكسار العالم نفسه. وقد نجح خالد خليفة في توظيف هذه التقنيات دون افتعال، بحيث بدت جزءاً عضوياً من التجربة الروائية لا مجرد حيل شكلية².

كما أن التناوب بين الحاضر والاسترجاع يخلق نوعاً من التعليق الوجودي، حيث يشعر القارئ أن الشخصيات عالقة بين زمنين، مثلما أن الجثمان نفسه معلق بين مكانين. وهذه الموازنة بين البناء الزمني والموضوع السردى تكشف براعة النص في تحقيق الانسجام بين الشكل والمضمون³.

إن تقنيتي تعدد الأصوات والاسترجاع تمثلان العمود الفقري للبناء السردى في رواية الموت عمل شاق، لأنهما لا تؤديان وظيفة فنية فقط، بل تكشفان عن الرؤية العميقة للنص تجاه الإنسان والذاكرة والزمن. فمن خلال تعدد الأصوات، تتجلى هشاشة الحقيقة الإنسانية وتعددتها، ومن خلال الاسترجاع، ينكشف الماضي بوصفه قوة فاعلة تشكل الحاضر باستمرار. وهكذا ينجح خالد خليفة في بناء سرد معقد وحي، يجعل التقنية ذاتها جزءاً من المعنى، ويحول الحكى إلى تجربة تأملية تكشف مأساة الإنسان في مواجهة الفقد والتشظي والنسيان.

المطلب الثاني: جدلية الموت و الذاكرة : كيف يتحول السرد إلى طقس بديل

¹ خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 102.

² المصدر نفسه، ص 103.

³ ينظر، صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 60.

تقوم رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة على جدلية عميقة تربط بين الموت والذاكرة، حيث لا يظهر الموت بوصفه نهاية بيولوجية مغلقة، بل بوصفه حدثاً يستفز الذاكرة ويعيد تشكيل حضور الغائب داخل الوعي الفردي والجماعي. وفي هذا السياق، يتحول السرد من مجرد تقنية حكاية إلى طقس بديل يعوض تعثر الطقس الجنائزي التقليدي، ويمنح الموتى شكلاً آخر من أشكال العبور الرمزي. فحين يعجز الواقع عن إتمام طقوس الوداع وفق انتظامها الثقافي والاجتماعي، يتدخل الحكي ليؤدي وظيفة رمزية موازية، تحفظ للميت حضوره، وتمنح الأحياء فرصة مواجهة الفقد وتأويله. ومن هنا يغدو السرد فعلاً طقسياً يرمم ما تهدم من المعنى، ويعيد للموت مكانته داخل النظام الرمزي الذي اختل بفعل الحرب والخراب¹.

في الثقافة الإنسانية، تمثل الطقوس الجنائزية إحدى أهم الآليات الرمزية التي تنظم العلاقة بين الأحياء والأموات. فهي لا تؤدي وظيفة دفن الجسد فقط، بل تؤسس لعبور الراحل من عالم الحضور إلى عالم الغياب، وتمنح الجماعة فرصة الاعتراف بالفقد وإعادة ترتيب علاقتها بالذاكرة. غير أن رواية الموت عمل شاق تكشف عن انهيار هذه الوظيفة، حيث يصبح الدفن ذاته مهمة عسيرة تكاد تستحيل، ويتحول الجثمان إلى كيان معلق بين عالمين. وفي ظل هذا التعثر، يظهر السرد بوصفه البديل الممكن، إذ يتولى عبر الحكي ما عجزت الطقوس الواقعية عن إنجازه².

إن الجثمان في الرواية، رغم صمته، يستفز تدفق الحكايات. فوجود الأب الميت داخل السيارة لا يفرض حضوره الجسدي فقط، بل يوقظ ذاكرة الأبناء ويدفعهم إلى استعادة تفاصيل علاقتهم به. وهكذا يصبح السرد وسيلة لإعادة بعث الأب رمزياً. إن الشخص لا يستمر فقط عبر قبر يحتضن جسده، بل

¹نظر، حميد لحداني، بنية النص السردي، ص 63.

²ينظر، صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 62.

عبر الحكايات التي تحفظ أثره في ذاكرة الآخرين. ومن خلال هذا المعنى، يغدو الحكى فعلاً جنائزياً موازياً للدفن، لأنه يضمن للميت شكلاً من الاستمرار الرمزي داخل الزمن الإنساني¹.

ويتجلى هذا التحول في الكيفية التي يعيد بها السرد بناء صورة الأب. ففي الحياة كان حضوره مشروطاً بحدود السلطة والعلاقة اليومية، أما بعد الموت فإنه يتحول إلى موضوع للتأمل والاستعادة وإعادة التأويل. فالأبناء لا يكتفون بتذكره كما كان، بل يعيدون صياغته داخل ذاكرتهم، ويكتشفون فيه جوانب لم يكونوا قادرين على رؤيتها سابقاً. وهكذا يؤدي السرد وظيفة تشبه طقس التوديع، حيث يُعاد تعريف الراحل لا بوصفه جسداً انتهى، بل بوصفه أثراً إنسانياً مستمراً في الوعي².

ومن منظور أنثروبولوجي، يمكن النظر إلى هذا السرد بوصفه طقس عبور رمزي. فالطقوس التقليدية تنقل الميت من وضعية إلى أخرى داخل النظام الثقافي، بينما يقوم السرد هنا بنقل الغائب من مستوى الفقد المادي إلى مستوى الحضور الرمزي. إن الحكى يعيد إدماج الميت داخل الجماعة، لا بوصفه عضواً حياً، بل بوصفه ذاكرة مشتركة قابلة للاستمرار. وهذه الوظيفة تجعل الرواية ذاتها فضاءً طقسياً يحتضن عملية العبور التي تعذر إنجازها في الواقع³.

كما أن السرد لا يرمم فقط علاقة الأحياء بالموتى، بل يعيد تنظيم علاقتهم بذواتهم. فكل حكاية يستعيدها الأبناء عن أبيهم تكشف جانباً من ذواتهم، وتجبرهم على مراجعة مواقفهم السابقة. ومن خلال هذا الفعل، يصبح الحكى نوعاً من التطهير النفسي المشابه لما تؤديه الطقوس الجنائزية من تحرير

¹ لينظر، سعيد بقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 57.

² خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 105.

³ الرواية، ص 107.

للأحياء من ثقل الفقد. إن السرد لا يلغي الألم، لكنه يمنحه معنى قابلاً للفهم، ويتيح للذات إمكانية استيعابه بدل الانكسار تحته¹.

وتظهر جدلية الموت والذاكرة بوضوح في أن الموت، بدل أن يقطع الصلة بالماضي، يعيد فتحه على مصراعيه. فكلما اقترب الجثمان من مثواه الأخير، ازداد تدفق الذكريات، وكأن الموت نفسه يطالب بالحكي حتى يكتمل عبوره الرمزي. "إن الذاكرة هنا لا تأتي بعد الموت، بل تتبع منه، وتصبح جزءاً من فعله الرمزي."² وهكذا يتداخل الموت مع الحكي في علاقة جدلية تجعل أحدهما يستدعي الآخر باستمرار.

ويمنح هذا التداخل السرد وظيفة مقاومة للنسيان. فالنسيان هو الموت الرمزي الحقيقي، لأنه يمحو الأثر الإنساني من الوعي الجماعي. أما الحكي فيحفظ هذا الأثر، ويعيد إنتاجه في كل مرة يُروى فيها. ومن ثم، يتحول السرد إلى طقس مقاوم للمحو، يثبت أن الإنسان لا يفنى بالكامل ما دام موضوعاً للذاكرة والحكاية. وهذا المعنى يكتسب في الرواية بعداً مأساوياً خاصاً، لأن الحرب لا تهدد الأجساد فقط، بل تهدد الذاكرة ذاتها، وتجعل الحكي ضرورة وجودية لحماية ما تبقى من المعنى³.

كما أن الرواية تجعل من فعل القراءة ذاته امتداداً لهذا الطقس البديل. فالقارئ، وهو يتتبع رحلة الجثمان واسترجاعات الشخصيات، يشارك ضمناً في حفظ ذاكرة الأب والعائلة والوطن. وبذلك لا يظل السرد حكراً على الشخصيات، بل يتحول إلى ممارسة جماعية تشمل الكاتب والقارئ معاً. وهذه المشاركة تمنح النص بعداً طقسياً مضاعفاً، حيث تصبح الرواية فضاءً مشتركاً للحداد والتذكر والتأويل⁴.

¹ ينظر، صلاح فضل، المرجع السابق، ص 63.

² سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 60.

³ خالد خليفة، الموت عمل شاق، ص 109.

⁴ المصدر نفسه، ص 110.

ويتجسد الطابع الطقسي للسرد أيضًا في تكراره الدوري لبعض الصور والمشاهد. فالجثمان يعود باستمرار إلى مركز الحكاية، والذكريات تتكرر بصيغ مختلفة، وكأن النص يمارس نوعًا من الترتيل الرمزي الذي يعيد تثبيت المعنى عبر التكرار. وهذه البنية التكرارية تشبه منطق الطقوس التي تعتمد إعادة الأفعال والأقوال لتأكيد حضورها الرمزي. وهكذا يكتسب الحكيم إيقاعًا احتفاليًا حزينًا يجعل الرواية نفسها أقرب إلى مرثية ممتدة¹.

ومن الناحية الجمالية، ينجح خالد خليفة في بناء هذا الطقس البديل دون مباشرة خطابية. فهو لا يعلن أن السرد يحل محل الطقس، بل يجعل القارئ يكتشف ذلك من خلال التجربة النصية ذاتها. فكلما تعثرت الرحلة الواقعية، ازداد اكتمال الرحلة السردية، وكأن الحكيم يعوض تدريجيًا ما يعجز الواقع عن إنجازه. وهذه الموازنة الدقيقة بين فشل الفعل الواقعي ونجاح الفعل السردي تكشف براعة النص في تحويل التقنية إلى معنى².

كما أن هذا التحول يفتح الرواية على أفق فلسفي عميق، إذ يطرح سؤالًا جوهريًا حول معنى البقاء الإنساني. فإذا كان الجسد إلى زوال، فإن الذاكرة وحدها تمنح الإنسان شكلًا من الخلود الرمزي، والسرد هو الوسيلة التي تحفظ هذه الذاكرة من الفناء. ومن هنا يتجاوز النص خصوصية حكايته لي طرح تأملًا كونيًا في علاقة الإنسان بالموت، وفي حاجته الدائمة إلى الحكيم بوصفه دفاعًا أخيرًا ضد العدم³.

إن رواية الموت عمل شاق تقدم نموذجًا فريدًا لجدلية الموت والذاكرة، حيث يتحول السرد إلى طقس بديل يعوض انهيار الطقس الجنائزي الواقعي، ويمنح الراحلين عبورهم الرمزي داخل الوعي الإنساني. لقد نجح خالد خليفة في جعل الحكيم نفسه فعلاً جنائزيًا مقاومًا للنسيان، يثبت أن الموت لا يكتمل إلا حين

¹ لينظر، حميد لحداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 17.

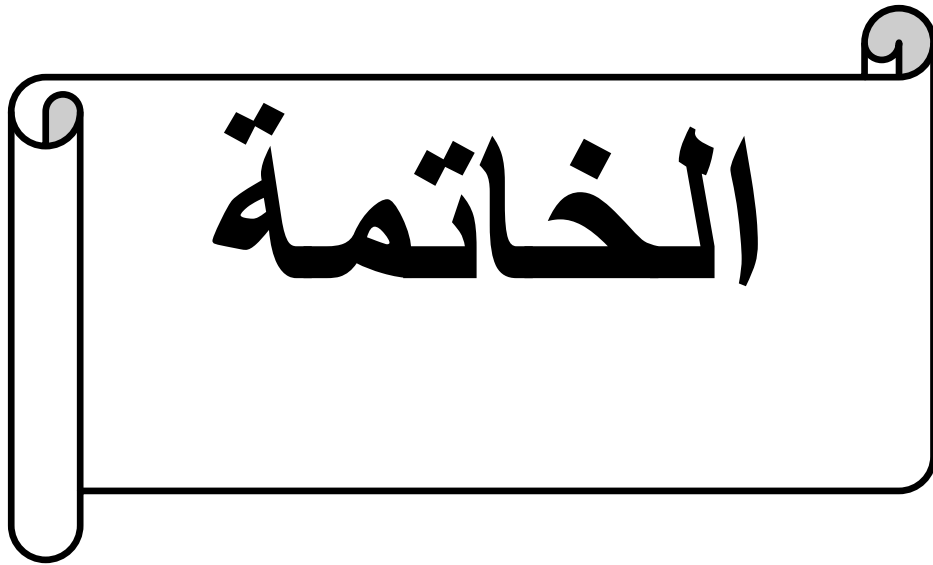
² لينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 64.

³ لينظر، الرواية، ص 117.

يصمت السرد، وأن الذاكرة لا تستمر إلا ما دام هناك من يروي. وهكذا تصبح الرواية شهادة على قدرة الأدب على ترميم المعنى حين يعجز الواقع عن ذلك، وتحويل الفقد إلى حضور رمزي لا ينطفئ .

خلاصة الفصل الثاني

خلص هذا الفصل إلى أن رواية الموت عمل شاق للكاتب خالد خليفة تقدم رحلة الجثمان بوصفها مسارًا سرديًا وأنثروبولوجيًا يكشف عن أبعاد الموت والذاكرة داخل واقع مأزوم. وقد تبين أن الطقس الجنائزي في الرواية يتجاوز وظيفته التقليدية ليغدو أداة لكشف اختلال النظام الاجتماعي والرمزي. كما ظهر الجثمان رمزًا كثيفًا للهوية والانتماء، يعكس أزمة العلاقة بالمكان والجذور في ظل التشظي. وأظهرت الدراسة أن رحلة الجثمان تتقاطع مع رحلة الذاكرة، حيث يستعيد السرد الماضي بوصفه فعلًا مقاومًا للنسيان والمحو. كما كشفت الذاكرة الفردية والجماعية عن عمق الخراب الذي أصاب الأسرة والوطن معًا. وتبين أن البيئة السردية والرمزية أسهمت في تكثيف دلالات النص وإبراز أبعاده الوجودية. كذلك برزت تقنيات تعدد الأصوات والاسترجاع في بناء عالم روائي متشظٍ يعكس انكسار الواقع. وانتهى التحليل إلى أن السرد نفسه يتحول إلى طقس بديل يعوض تعثر الطقوس الواقعية، ويحفظ الذاكرة من الفناء، ليؤكد قدرة الأدب على ترميم المعنى في مواجهة الموت والخراب.



خاتمة

رواية الموت عمل شاق من الأعمال الروائية العربية المعاصرة التي استطاعت أن تُجسّد مأساة الإنسان العربي في زمن التحولات العنيفة، من خلال بناء سردي متماسك يجمع بين البعد الواقعي والرمزي، ويجعل من الحكاية البسيطة في ظاهرها مدخلاً لطرح أسئلة وجودية وفكرية عميقة تتصل بالموت والذاكرة والانتماء والهوية. وقد سعت هذه الدراسة، من خلال مقارنة سردية تحليلية، إلى الكشف عن البنية الفنية للرواية واستجلاء الدلالات التي تنتجها الرحلة بوصفها محركاً أساسياً للأحداث، ومحوراً تتقاطع عنده التحولات النفسية للشخصيات مع السياق التاريخي والاجتماعي الذي تنتمي إليه.

وقد أظهرت الدراسة أن الرحلة في الرواية لا يمكن اختزالها في بعدها المكاني المرتبط بنقل الجثمان من مدينة إلى أخرى تنفيذاً لوصية الأب، بل إنها تتجاوز هذا المستوى الظاهري لتتحول إلى رحلة وجودية معقدة داخل أعماق الشخصيات، حيث تستدعي الذاكرة أحداثاً ماضية وتعيد تشكيلها وفق وعي مثقل بالألم والانكسار. ومن خلال هذا التوازي بين الرحلة المادية ورحلة الذاكرة، نجح الكاتب في بناء نص متعدد الطبقات، تتداخل فيه الأزمنة وتتقاطع فيه الأصوات السردية، بما يمنح القارئ تجربة تأويلية ثرية تكشف عن التوتر القائم بين الماضي والحاضر، وبين الذاكرة بوصفها عبئاً نفسياً، والموت بوصفه نهاية تكشف هشاشة الوجود الإنساني.

كما بيّنت الدراسة أن تقنية الاسترجاع السردية شكّلت أداة مركزية في بناء الرواية، إذ لم تُستخدم لمجرد استعادة أحداث سابقة، بل كانت وسيلة للكشف عن العمق النفسي للشخصيات، وعن شبكة العلاقات المتوترة التي تربط بينها. فالذاكرة في النص ليست مجرد خزان للماضي، وإنما فضاء لإعادة مساءلة التجارب المؤلمة التي أسهمت في تشكيل وعي الشخصيات ورؤيتها للعالم. وقد مكّن هذا

التوظيف الفني للذاكرة من تعرية التصدعات النفسية والعاطفية التي خلفتها سنوات الحرب والانقسام، وجعل من السرد مساحة لاستحضار ما تم إسكاته أو تأجيل مواجهته.

وأثبت التحليل كذلك أن الشخصيات الروائية في هذا العمل لم تُقدّم باعتبارها نماذج ثابتة أو مكتملة، بل ظهرت بوصفها ذواتًا مأزومة تتشكل داخل سياق من القلق والاعتراب والخذلان. فكل شخصية تحمل جراحها الخاصة، وتعيش صراعًا داخليًا بين ما ترغب في قوله وما تعجز عن الإفصاح عنه، وهو ما أضفى على النص بعدًا إنسانيًا عميقًا، وجعل من العلاقات الأسرية مجالًا للكشف عن آثار القمع والصمت الطويل والتشظي النفسي الذي يطال الفرد داخل مجتمعه وداخل أسرته على حد سواء.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن المكان في الرواية لم يكن إطارًا محايدًا للأحداث، بل اضطلع بوظيفة دلالية وجمالية أساسية، حيث تحوّل إلى مرآة للخراب الداخلي والخارجي معًا. فالطرق المقطوعة، والحواجر الأمنية، والمدن التي أثقلتها الحرب، لم تُوظّف باعتبارها مجرد تفاصيل واقعية، بل جاءت محمّلة بدلالات رمزية تعكس حالة الانهيار التي يعيشها الإنسان والوطن. وقد أسهم هذا الحضور المكثف للمكان في تكثيف الإحساس بالاختناق واللاجدوى، وجعل من الرحلة معادلًا رمزيًا لمسار وجودي مأزوم يتعذر الوصول فيه إلى خلاص حقيقي.

كما كشفت الدراسة عن البعد الرمزي العميق الذي يحمله الجثمان داخل الرواية، إذ لم يكن مجرد موضوع للسرد، بل تحوّل إلى علامة سردية مشحونة بالإيحاءات، تستدعي معاني الفقد والانقطاع والبحث عن المصالحة المستحيلة. فالجثمان الذي يُراد له أن يُدفن وفق وصية صاحبه، يغدو رمزًا لذاكرة وطن منقل بالموت، ولإنسان يبحث عن مكان أخير ينتمي إليه بعد أن تهاوت المعاني الكبرى للانتماء والاستقرار. ومن خلال هذا الرمز، استطاع الكاتب أن يجعل من الموت تجربة تتجاوز معناها البيولوجي لتصبح سؤالًا فلسفيًا عن معنى البقاء، وعن جدوى التمسك بالأمل وسط عالم يتداعى.

وقد أبرزت الدراسة كذلك أن خالد خليفة استطاع، عبر لغة سردية مكثفة ومشحونة بالإيحاء، أن يزاوج بين التوثيق الفني للواقع السوري وبين بناء خطاب إنساني يتجاوز المحلي إلى الكوني. فالرواية، وإن انطلقت من سياق تاريخي محدد، فإنها تطرح أسئلة إنسانية شاملة تتعلق بالموت والذاكرة والاعتراب والعلاقة المعقدة بين الإنسان وماضيه. وهذا ما يمنح النص قيمته الأدبية ويجعله قابلاً لقراءات متعددة تتجاوز حدوده الزمنية والمكانية.

ويمكن القول في ضوء ما سبق إن رواية الموت عمل شاق تمثل نموذجاً سردياً متميزاً في الرواية العربية الحديثة، لأنها استطاعت أن تجعل من حدث بسيط نسبياً — هو نقل جثمان إلى مكان دفنه — بنيةً رمزيةً كثيفة تختزن أبعاداً فكرية وجمالية واسعة، وتكشف من خلالها عن مأساة الإنسان المعاصر في مواجهة ذاكرة مثقلة بالفقد، وواقع مأزوم يفتقد المعنى.

لقد انتهت هذه الدراسة إلى أن رحلة الجثمان في الرواية ليست سوى الوجه الظاهر لرحلة أعمق داخل الذاكرة الإنسانية، حيث يصبح استحضار الماضي شكلاً من أشكال المواجهة مع الذات، ويغدو السرد فعل مقاومة ضد النسيان والانقياد. كما تؤكد أن الرواية الحديثة لم تعد معنية فقط بحكاية الأحداث، بل أصبحت وسيلة فنية وفكرية لإعادة مساءلة الوجود الإنساني والكشف عن تناقضاته الخفية.

وفي الأخير، فإن هذه الدراسة، رغم ما بذل فيها من جهد في التحليل والتأويل، تبقى محاولة مفتوحة على إمكانات قرائية أخرى، يمكن أن تتناول الرواية من زوايا مختلفة، كالمقاربة النفسية أو السيميائية أو الثقافية، بما يساهم في إثراء البحث النقدي حول هذا العمل وحول التجربة الروائية لخالد خليفة عموماً، ويؤكد المكانة التي بات يحتلها في مسار الرواية العربية المعاصرة بوصفه صوتاً سردياً استطاع أن يحول الألم الإنساني إلى جمال فني خالد.



قائمة المصادر و المراجع

أولاً: المصادر

- 1- خالد خليفة، الموت عمل شاق، دار نوفل، مكتبة الفكر الجديد، بيروت، لبنان، د.ط، 2016 .

ثانياً: المراجع

أ/باللغة العربية

- 2- أحمد زين الدين، الموت بين المجتمع والثقافة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2010
- 3- محمد بن خدة، الأسطورة والواقع في الثقافة الجزائرية، دار الثقافة، الجزائر، 2004.
- 4- فؤاد بنيس، السرد والموت: قراءة في النص الروائي العربي، دار مدى، لبنان، 2012.
- 5- عبد الرحمان جنيدي، أنثروبولوجيا الموت بين الوفاة والقتل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015.
- 6- الجيلالي عبد الله، الطقوس الجنائزية في المجتمعات التقليدية: مقارنة أنثروبولوجية، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2016.
- 7- حميد لحداني، بنية النص السردية-من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
- 8- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005.
- 9- سيزا قاسم، بناء الرواية - دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ-، مكتبة الأسرة، مصر، د.ط 2004.
- 10- إبراهيم شوقي، الرمزية في السرد العربي، دار الكتب العلمية، مصر، 2008.
- 11- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1996.
- 12- عبد السلام الطرابلسي، الطقس والرمز في الثقافة الشعبية، دار الفارابي، لبنان، 2013.
- 13- عبد الرحمان بدوي، الإنسان والموت: دراسة في الوعي والطقس، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 2008
- 14- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998.
- 15- محمد إبراهيم قشقوش، ذاكرة الموت: مقاربات ثقافية وفكرية، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر، 2012.
- 16- عبد الحميد معروز، الهوية والذاكرة في المجتمع الجزائري، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018.
- 17- يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ط3، دار الفارابي للنشر، بيروت، لبنان، ط3، 2010.

المراجع المترجمة

- 18- بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.
- 19- تزفيتان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت، دار توبقال، المغرب، 1990 .
- 20- تشيسون، الذاكرة الاجتماعية والهوية والموت: منظور أنثروبولوجي للطقوس الجنائزية، أوراق علم الآثار للجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا، 2001.

- 21- جيرار جينيت، خطاب الحكاية: بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997.
- 22- دوركايم إميل، الأشكال الأولية للحياة الدينية (ترجمة: محمود إسماعيل)، دار المعارف، مصر، 2011.
- 23- رولان بارت، لذة النص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 1992.
- 24- فان جنيب أرنولد، طقوس العبور (ترجمة: عادل زعيتر)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، مصر، 2013.
- 25- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر، دمشق، 1987.

المجلات:

- 26- مصطفى بلقاسم، الثقافة والهوية في الجزائر، قراءة أنثروبولوجية، دار المعرفة، الجزائر، 2015.
- 27- إبراهيم كراش، سلوى تيشات، مشكلة الذاكرة والنسيان في الأنثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور. مجلة ألف اللغة والإعلام وللمجتمع، الجزائر، 2023.
- 28- جمال الدين المسعودي، الرموز والطقوس الشعبية في الجزائر: دراسة في الذاكرة الثقافية، دار الكتاب الجامعي، الجزائر، 2017.
- 29- سعيد المصري، الفناء في الثقافات الإنسانية: قراءة نقدية في أنثروبولوجيا الموت، مجلة ألف، الجزائر، 2022.
- 30- هاجر مباركي، أزمة الرواية العربية في ظلّ المتغيرات الحضارية-الهوية بين التخلي والحنين، مجلة مقاليد، العدد 08، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، الجزائر، جوان 2015.
- 31- فضيلة مادي، بخة هواشيرية، صورة الموت في رواية الموت عمت شاق قراءة بانورامية دلالية، مجلة معارف، الجزائر، العدد 1، 2023.
- 32- سمير عبد الرحيم أغا، عتبات النص الروائي - رواية الصندوق الأسود أنموذجا-، مجلة الحوار المتمدن، العدد 3351.

• مقدمة.....أ

الفصل الأول:

الموت والذاكرة بين الأنثروبولوجيا والسرد الأدبي

تمهيد.....10

المبحث الأول: أنثروبولوجيا الموت والذاكرة.....12

المطلب الأول: مفهوم الموت في الدراسات الأنثروبولوجية.....12

المطلب الثاني: الطقوس الجنائزية كمرآة للثقافة والمجتمع.....17

المطلب الثالث: الذاكرة الفردية والجماعية بين الإستمرارية والإنقطاع.....22

المبحث الثاني: السرد الأدبي وثيقة أنثروبولوجيا.....27

المطلب الأول: العلاقة بين الأدب والأنثروبولوجيا.....30

المطلب الثاني: السرد بوصفه حاملا للذاكرة الجماعية.....33

المطلب الثالث: الموت بوصفه سرديّة: من الواقعي إلى الرمزي.....37

المبحث الثالث: رواية الموت عمل شاق في سياقها الأدبي والإجتماعي.....42

المطلب الأول: خالد خليفة ومسار الكتابة السورية الحديثة.....43

المطلب الثاني: الرواية مرآة الحرب السورية الحديثة.....46

المطلب الثالث: موقع الرواية ضمن أدب الحرب والذاكرة.....49

الفصل الثاني:

رحلة الجثمان ورحلة الذاكرة: تحليل سردي أنثروبولوجي.

54.....	تمهيد
55.....	<u>المبحث الأول: رحلة الجثمان</u>
55.....	المطلب الأول: الطقس الجنائزي كمسار سردي
59.....	المطلب الثاني: الجثمان رمز للهوية والانتماء
62.....	المطلب الثالث: الجثمان الجنائزي الرحلة بين الجغرافي والميتافيزيقي
66.....	<u>المبحث الثاني: رحلة الذاكرة</u>
67.....	المطلب الأول: السرد بوصفه إستعادة
70.....	المطلب الثاني: الذاكرة الفردية للشخصيات الأب- الأبناء
75.....	المطلب الثالث: الذاكرة الجماعية الحرب- الخراب
79.....	المطلب الرابع: السرد كآلية مقاومة للنسيان
83.....	<u>المبحث الثالث: البنية السردية والرمزية في الرواية</u>
83.....	المطلب الأول: تقنيات السرد ، تعدد الأصوات، الإسترجاع
88.....	المطلب الثاني: جدلية الموت و الذاكرة : كيف يتحول السرد إلى طقس بديل
94.....	• ..خاتمة
97.....	• قائمة المراجع
98.....	• الفهرس